

المكتبة الثقافية

٦٤

انتصار مصر في رشيد

الدكتور عبد العزيز رفاعي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للتأليف والترجمة
والطباعة والنشر

أول بوليه ١٩٦٢

اهداءات ٢٠٠٠

المهندس/ د. ادهيس اللقاني

الإسكندرية

المكتبة الثقافية

٦٤

انتصار مصر
في رشيد

١٨٠٧

الدكتور عبد العزيز رفاعي

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة
المصرية
العامة
للترجمة والنشر
والطباعة والنشر

أول يولييه ١٩٦٢

الناشر




دار الفكر

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

 الغرب بالشرق في ساحة مصر لأول مرة ، في العصر الحديث في ظل الحملة الفرنسية ، فأخذت مصر تستيقظ من سبات طويل ، وتنضج جفنها الوستان بأنداء مبادئ الحرية التي اختمرت في الغرب .

وطلع فجر مصر الحديثة ، وأخذ يعبر عن ذاته في طلائع أشرفت تسائر نمو المطامع الاستعمارية في مطلع القرن التاسع عشر ، يذوراً تتهياً في الخفاء بالاختيار نحو النماء في ظل مقاومة المصريين للغزو الفرنسي ، تعبر عن اتجاه صاعد من التكوين القوي الحديث ، تجلت في تخيير مصر حاكمها محمد علي ، بغير الطرق المألوفة في تعيين الولاة العثمانيين .

واستمرت بذور الوعي الصاعد تنمو فتتجلى ألواناً من التماسك والشعور المشترك والإباء حتى عبرت عن ذاتها مرة أخرى في ظل لقاء آخر مع عدوان الغرب ، فرضت مقدماته الحملة الفرنسية من قبل فيما أثارته من صراع استعماري حول بسط النفوذ على مصر ، فكانت حملة « فريزر » سنة ١٨٠٧ أداة كشفت عن بواطن بذور هذا الوعي ، وكانت رشيد الساحة التي التقت فيها مقدرات الوعي الصاعد مسجلة نصرها على الاستعمار الغاصب ، وإن بدت هذه المقاومة الشعبية في بساطتها نابعة بوحى من الفكرة الإسلامية قائمة على أساس الولاء للجماعة من خلالها. فقد مثلت لجرأ جديداً عندما تحقق على يديها هزيمة إنجلترا ، وقد كانت هذه الروح الجديدة ، إذ ذاك ، في مشرقها تستنبت داخل هذا الإطار الإسلامي متجهة نحو نزعة قومية اتضحت مع الأيام .

ولقد كانت حملة فريزر على مصر ، حلقة من حلقات الصراع الاستعماري الذي تأصلت جذوره فيها منذ أن بدأ الصراع بين إنجلترا وفرنسا في الشرق إثر احتلال الأخيرة لمصر على يد « بوناپرت » . ولقد تشكلت السياسة البريطانية نحو مصر بعد جلاء فرنسا عنها على أساس مكافحة النفوذ الفرنسي فيها ، لضمان مواصلات

الإمبراطورية في طريقها إلى الهند ، وقد اتخذ ذلك في البداية صورة نضال دبلوماسي تارة ومؤامرات ودسائس تارة أخرى . حتى انتهى في النهاية بتغير الموقف الدولي إلى عدوان حربي على مصر .

سعت بريطانيا لإعادة تنظيم قوة الممالك عقب الجلاء الفرنسي عن مصر ، وتمكينهم من النفوذ في البلاد كسلطة موالية لهم ضد السيطرة الفرنسية ، فلم تفلح ، فلما استحکم النفوذ الفرنسي وفرض سلطانه على الدولة العثمانية أثار حرص إنجلترا على مصالحها في الهند ، وأسرعت بتجاوب مع الموقف بالقوة ، فأرسلت أسطولها إلى المضائق تهدد به الدولة العثمانية ، وتحاول بذلك إبعادها عن الارتقاء في أحضان النفوذ الفرنسي في عهد نابليون ، في الوقت الذي أرسلت فيه حملة فريزر إلى مصر للضغط عليها من جهة كي تتراجع ، وللحيلولة مؤقتاً دون وقوع مصر فريسة في يد نابليون . وإذ ذاك تستطيع تنفيذ خططها نحو مصر بإيجاد حكومة موالية لها من الممالك فتتمكن من بسط نفوذها عن طريقهم على البلاد .

وفي ساحة رشيد التقى الاتجاهان ، واستطاعت بذور الوعي الجديد التعبير عن ذاتها ، عندما وقفت هذه البلدة في ثقة واعتزاز

وتماسك في وجه الحملة حتى مزقتها ، ومن ورائها شعب متساند ،
حتى لقيت الحملة على يد رشيد مضرعها في النهاية . وكانت هزيمة
بريطانيا حربية ، بتمزيق جيشها ، كما كانت سياسية ، وكان ذلك
نصراً لمصر في مشرق الوعي الجديد ، فقد حالت الهزيمة دون تحقيق
الخطة السياسية وأصاب سياسة بريطانيا في الصميم . وكان
انتصار مصر انتصاراً رسم أمامها الطريق نحو البناء .


في هذا الكتاب محاولة - في خطوط رئيسية - للكشف عن
حلقات هذين الاتجاهين اللذين انتهيا إلى ساحة رشيد في هزيمة
خطة بريطانيا التي شاءت فرضها على مصر ، وانتصار المقاومة
الشعبية التي عبرت عن أصول هذا الوعي الصاعد ، آملين بهذا
القدر المحدود أن تتمكن من الإسهام في نشر الثقافة القومية
ولإبراز دور الشعب في النضال القومي والكشف عن البذور
الأولى للوعي القومي الجديد في مصر الحديثة .
والله ولي التوفيق ؟

عبد العزيز رفاعي

بونية سنة ١٩٦٢

أطماع بريطانيا في مصر

وموقف الشعب (١٨٠٣-١٨٠٦)

 حملة بونايرت على مصر عام ١٧٩٨ مخاوف إنجلترا
على إمبراطوريتها في الهند ، ومن وحى مطامعها
الاستعمارية في الشرق ، اتجهت إبان اشتداد المنافسة الاستعمارية
بينها وبين فرنسا ، تعمل على صيانة طريقها إلى إمبراطوريتها
بالقضاء على الحملة ، فلما أُجِّلِيَ الفرنسيون عن مصر ، تشكلت
سياستها حول متابعة النضال ضد فرنسا في مصر ؛ لتنفرد من دونها
بوحدة النفوذ فيها ، وتضمن طريقها إلى الهند بعيداً عن أطماعها .
وبينما كانت بريطانيا تجدد في نشاطها من أجل ذلك ، فضلاً
سياسياً بإعادة تنظيم القوة المملوكية التي كانت قد تفككت
أواصرها من قبل واتخاذها كتمكأة سياسية تعتمد عليها للحيلولة
دون عودة الفرنسيين إليها والحيلولة دون أى احتمال لغزو مصر -
كان يسير ذلك النشاط إذ ذاك طلائع وعى قوى استناره
الغزو الفرنسى من قبل وأخذ يعبر عن ذاته في إطار الفكرة

الإسلامية حتى تجلى في تخيير محمد علي والياً على مصر عام ١٨٠٥ .
فلما انتهت الظروف الدولية ببريطانيا إلى إنفاذ حملة « فريزر »
إلى مصر سنة ١٨٠٧ للحيولة دون وقوع مصر في يد بوناپرت
معتمدة على حلفائها البسكات الممالك ، استطاعت هذه الروح
الجديدة أن تعبر عن وجودها في ثقة في صد هذا العدوان فبفضل
تماسك الشعب ثابت خطط بريطانيا العسكرية والسياسية في
ساحة رشيد .

* * *

اتجه الإنجليز وبذور الوعي القومى تختمر قبل جلائهم عن
مصر في احتلالهم الأول لها عام ١٨٠٣ ، لإعادة تنظيم القوة
المملوكية كي يستندوا إليها كقوة موالية لهم لتحقيق مراءهم ،
وذلك عندما تجلى لهم ضعف القوات التركية إبان النضال المشترك
مهم ضد الفرنسيين ؛ لحاجتها إلى التنظيم . وقد اعتقدوا أن
القوة المملوكية قوة أصيلة في مصر ، قادرة وحدها على أن تقف
أمام احتمالات غزو فرنسى لمصر ، وتمكينهم بعد تنظيمها ووردها
لمكانتها الأولى من تحقيق أغراضهم ، ذلك الأمر الذى يفسر
تأييد إنجلترا للقضية الممالك في نزاع هؤلاء ضد العثمانيين عقب
خروج الفرنسيين .

ولم تعمل بريطانيا حساب الروح القومي الذي بدأت طلائعه تشرق وهي في دور الاختيار من خلال الفكرة الإسلامية بما ابتعثته من نضال ضد الفرنسيين من قبل ، وما كانت تنزع إليه هذه الروح من كراهية ضد ظلم العثمانيين والمماليك على السواء . فبدأت في التقارب إلى البسكوات المماليك عندما أحسّت برغبة زعيمهم « محمد بك الآلاني » للتعاون معهم من أجل استعادة نفوذهم في البلاد ، فالتقى الطرفان في الوسيلة واختلفا في الغاية .

شاه الآلاني قبل أن يلتقي متحالفاً مع الإنجليز أن يصفى ما بينه وبين الأتراك من مسائل ، واسترجاع نفوذ المماليك في مصر على حساب العثمانيين بوساطة الإنجليز . فرجع إلى قومه يستشيرهم في الأمر ، فلما وجدهم مختلفين معرضين عن هذا التعاون ضد العثمانيين بدافع النزعة الدينية ، من الخوف من تحالفهم مع الإنجليز ضد سلطان المسلمين ، حاول إقناعهم ، وكانت حجته إذ ذاك أن العثمانيين أنفسهم لم يستنكفوا — من أجل تحقيق أغراضهم واسترجاع نفوذهم في مصر على حساب الفرنسيين — أن يتحالفوا مع الإنجليز أنفسهم عندما اضطرتهم الظروف إلى ذلك رغم اختلافهم عنهم في الدين . فلما أصر جمهور

البكوات على رفض ما أشار به الألفى بك عليهم من رأى اتجه على الفور يدبر الأمر بنفسه .

حارل . أولا قبل الالتجاء إلى الإنجليز التفاهم مع العثمانيين فى مصر لاسترداد نفوذه ونفوذ عشيرته ، فاتفق بالوزير التركى الذى كان موجوداً إذ ذاك فى مصر . فوجد منه استعدادا للتفاهم والاستجابة إلى مراميه ولكن فى مكر ودهاء . فقد كان مرمى الوزير من ذلك الحصول على المال من الألفى ثم تفريق كلمة المماليك إذا ما استعلا السيطر علىه ؛ وقد كان العثمانيون يعملون له كل حساب لنفوذه وقوته .

وتفاهم الطرفان فى البداية فقلد الوزير التركى محمد بك الألفى إمارة الصعيد . وذلك نظير إتاوة مالية . وبدأ الموقف وكأنه قد سوى ؛ ولكن كان يطوى فى ثناياه اتجاهات كان من تأثيرها فى النهاية تحول الألفى نهائيا وإعراضه عن العثمانيين وإلقائه بنفسه بين أحضان الإنجليز . من أجل تحقيق مرامه فى البلاد .

فلم يلبث الوزير أن وجه قوته ضد المماليك ، عندهذا حاربهم الألفى حيث شاءوا الحرب ، ونزل تاركا الصعيد متوجها إلى البحيرة ، وهناك اصطدم مع الأتراك اصطداما كبيرا .

فلما تكشفت نيتهم اتجه في عزم يحالف الإنجليز ويعاھدھم علی اقتسام النفوذ في مصر فيما بينهم ، بمعونة كل الآخر علی القضاء علی خصمه .

واصطحب الإنجليز الالني معهم إبان جلالتهم عن مصر عام ١٨٠٣ وكان معه من زعماء المماليك ١٥ ملوكا ، لتفسيق الخطط بين الطرفين ، وذهب الالني إلى إنجلترا ، ولأق من أجل ذلك عناء كبيراً ، تاركاً مصر — وهي تجد ساعة لتخير حاكمها الصالح الذي يريد لها الأمن والطمأنينة — بين صراع تتجاذب أطرافه : السلطة الثمانية صاحبة السيادة ، والمماليك الساعون إذ ذاك بوسائهم لاسترداد سلطانهم ، ثم عاد الالني أخيراً بعد أن نسق خططه مع الإنجليز وهو أشد حماساً وأملاً في تنفيذ ما أرسى في رأسه من خطة ، ليشهد صراع هذه القوى الثلاث وهو في نهايته ، وما كاد يستقر في مصر حتى شاهد القوة الشعبية تبرز بزعامة عمر مكرم فتستجيب إلى الموقف وتتخير حاكمها بوحى منبعث من خلال الحكمة الإسلامية عن نظام الحكم ، تلك التي استشارتها الحملة الفرنسية من قبل حتى اهتدت إلى ضابط ألباني رأت فيه ما يحقق أغراضها في دعم الأمن والطمأنينة ، ورأت فيه الحاكم الصالح الذي يجب أن تدين له بالولاء ، فرفعت إلى أريكه

الحكم ، وقد رغب إذ ذاك ، هذا الألباني ، محمد علي ، الاستناد إليها لتحقيق رغبته في الانفراد بالحكم ، فاستوى على عرش مصر بغير الطرق المعهودة فيها في تعيين الولاة ، وذلك في ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ فكان ذلك إيذاناً بـشرق وعى جديد في مصر . كان يسائر نمو النشاط الاستعماري وينتجاً مع الأيام ليكون مبعث نضال ضده . ونذير سوء لأطماع الإنجليز والماليك على السواء .

شعر الألفي بميلاد خصم عنيد جديد له ، فانزعج أيما انزعاج بأكثر مما انزعج حلفاؤه الإنجليز ، ونشطت السلطة العثمانية تتجاوب مع الموقف ، كما نشطت الخطة البريطانية للقضاء على هذه القوة الجديدة في وقتها بتمكين الماليك من البلاد . فلما لم توفق وهدد النفوذ الفرنسي مصالحها في مصر أسرع في ظل تغيير الموقف الدولي لحماية مصالحها ، بإنفاد حملة فريزر على مصر سنة ١٨٠٧ وتنفيذ خطتها السابقة .

أخذت تركيا تراقب الموقف لتنفيذ ماتراه صالحاً ، وأخذت الدسائس تحيط بمحمد علي وأقدامه لم تستقر بعد في الحكم ، فهزت كيانه كحاكم وتحدث مشيئة الشعب في زعمائه .

سعت السياسة البريطانية بعلامتها في الاستانة للكيد له وإسناد

الحكم إلى الألفي :

واتجه الآلاني بدوره يؤلب الممالك على محمد علي ، وهو الرجل
الذي اعتلى الحكم فزاد نفوذهم تهديداً .
أما الشعب الذي نصب محمد علي على أريكة الحكم راضياً ،
فقد وقف في ملتقى الطرق يعمل على الحفاظ على إرادته ضد
هذه القوى المعادية .

لم تسكن السلطة العثمانية حين رضيت بمحمد علي والياً
على مصر ، مستجيبة إلى رغبة شعبها خالصة النية نحوه ، فلم يكن
من الولاة الذين ترسلهم إليها وتعزلهم كما تشاء ، بل كان الوالى
الذى أسلمه الشعب سلطات الحكم ففوت عليها إرادتها ، فلم يكن
موقفها بالذات إذ ذاك إلا كمن يفوت للعاصفة فى انتظار الفرصة
السانحة لاسترجاع حقوقها التقليدية ؛ لذلك سرعان ما أوفدت
بعد ذلك قبطان باشا فى ١٧ يوليو سنة ١٨٠٥ فى عمارة حرية
تقل ٢٥٠٠ جندي ليراقب سير الحوادث ، ويتخذ ما يراه
صالحاً لتركيا ، وقد خولته حق تثبيت محمد علي على الولاية أو عزله
منها . وقد أثار وجوده فى السواحل المصرية دسائس الممالك
ومن ورائهم الإنجليز ، فظهر هؤلاء قوة تحارب الوالى الجديد
الذى لم يكن له من قوة ولا سند ، غير هذا الشعب الذى رفعه
حتى مكثه من الملك فى البلاد .

أخذ الآلاني زعيم الماليك يرأس قبطان باشا ويعرض عليه أن ينحاز لقواته لمناوأة محمد علي وطرده وجنوده الأرنؤوط من مصر ، بل وأخذت رسل الإنجليز مع هذا — أثناء مقامه في أبي قير — تتردد عليه ويدين مطالب الآلاني ومحاولين إقناعه لإسناد ولاية مصر إليه ، بل جاهر الإنجليز أن حكومتهم تضطر إلى تجريد جيش على مصر لتأييد وجهة نظرها وذلك لبسط نفوذها بهذا عن طريق الماليك .

وانتهز الماليك فرصة وجود قبطان باشا ولم يعض على قولية محمد علي شهران ، ودبروا هجوما على القاهرة ، ليستولوا به على زمام الحكم ، وقد اختاروا الهجوم يوم الاحتفال بوفاء النيل في أغسطس عام ١٨٠٥ ولكنهم أخفقوا . فقد وضع محمد علي يده على هذه المؤامرة وقضى على خيوطها بالخسران ، وقد انتهز محمد علي هذه الفرصة فاستولى على الجزيرة في سبتمبر سنة ١٨٠٥ وكانت لا تزال في أيدي الماليك ، فلما دعم بهذا مركز محمد علي ولس قبطان باشا جدارته بالتأييد رحل إلى بلاده ومعه الوالى المخلاوع .

عرف محمد علي ما لزامة الشعب من المسكانة والنفوذ عند الجماهير ، فقدر لهم بدهائه هذه المنزلة . إبان هذه الظروف

الدقيقة ، فكانوا مرجع الحكومة فيما تفرضه من الإتاوات والضرائب ، كما كانوا حلقة الشعب في تخفيف ما تفرضه الحكومة منها ، وقد عظم نفوذ زعيمهم عمر مكرم في تلك الآونة إلى ما لم يسبق له نظير من قبل ، ولا غرو فهو الذي قاد الشعب حتى اجلس محمد علي على عرش مصر .

محاولة عزل محمد علي

كان المماليك يدركون مكانة عمر مكرم في نفس الشعب والحكومة ، فليجأ إليه محمد الآلاني ليتخذة وسيطاً بينه وبين محمد علي لينهى الحرب بين الطرفين على أن يعطيه جهة يقيم فيها وأتباعه ، فأبى عمر مكرم ، وقامت الحرب بين المماليك ومحمد علي ، وانسحب الآلاني إلى الفيوم بعد العدة للقتال ، ورغم ما كان للمماليك من نفوذ حتى أوائل سنة ١٨٠٦ في الصعيد ، فقد أنفذ إليهم جيشاً بطاردهم ، ولكن سرعان ما أوقعت الحرب عندما واجه محمد علي مشكلة خطيرة كادت تقلب عرشه بفضل دسائس بريطانيا ، فلم ينجح منها إلا دماره المستند إلى تأييد الشعب .

ظل محمد علي غير مرضى عنه لا من تركيا ولا من الإنجليز ،

وإن ظل باقياً على عرشه ولم يمنع هؤلاء من أن يسعوا سعياً حثيثاً في إقصائه عن مصر وإحلال الممالك مكانه .

وكان الآلاني إذ ذاك على اتصال مستمر بعملاء الإنجليز بمختلف الرسائل والرسائل يتخذهم شفعاً لدى الباب العالي ، ليعاونوه على وضع الشروط التي يتولى بها الحكم ، وقد رأت بريطانيا أن يعين على مصر والٍ جدير من هؤلاء الولاة الذين كان من طبيعتهم ترك سلطة الحكم للممالك ، ثم أبلغت تركيا أن الآلاني خير من ترشحه لذلك ، وهو يتعهد بأن يؤدي جزية سنوية لها مقدارها ٧٥٠.٠٠٠ قرش تضمنها بريطانيا ، وقد أتبع ذلك بعوامل أخرى من الإغراء حتى صادف ذلك هوى في نفوس حكام الآستانة ، لاسيما وأن الباب العالي لم يكن لينسى أن إرادته في تولية محمد علي كانت خاضعة لضغط شعب مصر ، كذلك لم يكن مألوفاً أن تظل تركيا في إقرارها ولاية مصر بأكثر من عام . لذلك صحت عزيمتها على عزل محمد علي ، فأصدرت فرماناً بتولية موسى باشا مكانه ، وتقلد محمد علي ولاية سلاطيناك ، وكان متوقفاً أن يكون الوالى الجديد آلة في يد الممالك ، ومن ثم تعود السلطة إليهم ، وبالتالي يحقق الإنجليز أغراضهم كما كانوا يحلون . ولتنفيذ ذلك أوفدت تركيا فعلاً عمارة بحرية بقيادة صالح باشا ؛ لتنفيذ النقل بدون مقاومة .

وكان الألفي قد اطلع من قبل على مفاوضات الإنجليز والباب
 العالي من قنصل إنجلترا بمصر ، مما دعاه إلى التحرك من الفيوم
 قاصداً الوجه البحري عندما طارده محمد علي ، وكانت غايته أن
 يلتقي بصالح باشا عند حضوره ، وقد علم بمقدمه عندما وصل قرب
 دمنهور ، والتقى الألفي برسل الترك والإنجليز في حوش عيسى ،
 وهناك طمأنوه على آماله . ويرى الجبرتي المؤرخ المصري ،
 في حوادث يونيو سنة ١٨٠٦ : « أن المارة التركية احتوت جيشاً
 نظامياً جديداً ومعها بضعة أشخاص من الإنجليز يحملون مكاتبه
 موجهة إلى الألفي وبشارة بالرضا والعفو عن المالك صادرة
 من الدولة العثمانية بفضل وساطة الإنجليز ، فلما وصلوا إليه بناحية
 حوش ابن عيسى بالبحيرة سر بمقدمهم ، وأرسلهم إلى المالك
 بالصعيد ، وقد صحبهم أحد سناجقته وهو أمين بك ومحمد كاشف
 تابع إبراهيم بك الكبير ، كما أنه أرسل عدة مكاتبات بذلك
 الخبر إلى المشايخ وغيرهم بمصر ، وكذلك إلى مشايخ العربان ،
 مثل الحويطات وشيخ الجزيرة . وقال الجبرتي في موضع آخر
 في ترجمته للألفي : « وكان مع ما هو فيه من التنقلات والحروب
 يرأس الدولة الإنجليزية . » وقال في موضع آخر : « والسبب

في حركة القبطان لإرساليات الألفي للإنجليز ومخاطبة الإنجليز
الدولة ووزيرها محمد باشا السلحدار .

واستقر صالح باشا في الثغر ، وأوفد رسوله إلى محمد علي يبلغه
فرمان النقل ، فأخذ ذلك يستخدم ضروب دهائه ومكره لمواجهة
الموقف فتظاهر بالامتنال ، ولكنه تأهب سراً للقائمة مستنداً
إلى الشعب في زعامته ؛ ليواجه به العاصفة ، فاتجه بفكره فوراً إلى
السيد عمر مكرم يستنجد به لإحباط هذه المؤامرة فركب ذلك
إليه . وفي خلوة بينهما أفضى محمد علي إلى عمر مكرم بمؤامرة تركيا
وطالب النجدة ، فكان عمر مكرم باسم الشعب لمحمد علي
نعم النصير الأمين .

موقف الشعب من إحباط المؤامرة :

اعتزم الألفي بعد أن وصلت العارة التركية الإسكندرية
الاستقرار في دمنهور فحاصرها ليكره أهلها على التسليم .
أما محمد علي فراح يجد في إحباط المؤامرة والقضاء على قوات
الألفي معاً .

اتفق محمد علي والسيد عمر مكرم على أن يجتمع العلماء
ويكتبوا محضراً في شكل التماس بالاعتراض على عزله ،

والاحتجاج على تولية موسى باشا ، وعودة المالك . وكان
مضمونه أن المالك قد عرضوا على السلطان تعهدهم بدفع
الاموال الأميرية وأداء مرتبات الجيش والعفو عن جرائمهم
الماضية نظير الموافقة على دخولهم القاهرة ، وأن طلبهم حاز القبول .
وبهذا صدر فرمان بعزل محمد علي ، وقد قبلت توبتهم على أن
يقبل العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بمصر كفالتهم ، إلا أن
الموقعين على العريضة لا يستطيعون كفالتهم ، فإن شرط الكفيل
قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك . ثم عدد
العلماء في عريضتهم مساوى المالك ومظالمهم وأطروا أفعال
محمد علي ، وبهذا لم يجزوا تغيير الوالى ولم يرضوا بعودة الحكم
إلى المالك أو يقبلوا كفالتهم .

أما قبطان باشا فضى ينفذ خطته ، فطالب من العلماء فى رسالة
الامتنال للأمر ، فلم يلق منهم جواباً صريحاً بالامتنال ، ولما كانت
الأوامر تقضى برحيل الجنود الأرنؤودط مع محمد علي ، فقد
تذرعوا بأن امتناع الجنود عن الرحيل وعصيانهم يترتب عليه
تعرض البلاد للخراب ، فكرر عليهم قبطان باشا الأمر فى رسالة
شديدة اللهجة ، فكتب العلماء رسالة أخرى إلى قبطان باشا
فى أغسطس سنة ١٨٠٦ يذكرونه فيها صراحة أنهم لا يرتضون .

عن محمد على بدبلا ؛ لأنه دكافل الإقليم وحافظ شعوره ، ومؤمن
سبيله وقاطع المعتدين ، . والشريعة مقامة في أيامه ولا يرتضون
خلافه ؛ لما رأوا فيه من الخير ، ومن هذا يتجلى موقف
الشعب في زعامته في مساندة محمد على وتأيد كلمته ، وهو يقف
أمام تركيا ومن ورائها بريطانيا .

أخذ محمد على يتخذ خطة يعزز بها مساندة الشعب له ، فاتجه
يحرص الجنود على العصيان ، والمعارضة في رحيله ، فصادف ذلك
هوى في نفوسهم ، لأنهم خشوا إذا هو ارتحل عن مصر أن تسقط
ورائبهم المتأخرة ، فعاهدوه على الأمة والإخلاص ، ومن ثم أخذ
يستعد للمقاومة فأمد القلعة بالميرة والذخيرة وحصن الطوابي ،
وأنفذ جيشاً من جنوده إلى الرحمانية ؛ ليكون على أهبة الاستعداد
لقتال الأتقي والأتراك وغير ذلك ، وكانت ثقة محمد على بزعامه
الشعب هي التي عاونته على إنفاذ فكرة المقاومة كما كان تأييد
هؤلاء له تأييداً للسياسة التي رسموها من قبل وتثبيتاً لما اكتسبوه
من نفوذ في تسيير شئون الحكومة .

ثم تذرع محمد على بلون آخر من الدهاء والحيلة لإزاء المالك ،
فأخذ يعمل على قصم عراهم ، بإثارة روح التنافس القديم
بين زعمائهم .

كان رؤساء المماليك ينقمون على محمد الألفي ، انفراده
بالاتصال بالإنجليز ، وكتمانه أسرار المفاوضات عنهم ، وقد أرسلوا
سعاتهم إلى محمد على يعرضون عليه الصلح ، فانتهر القرصة وتلقى
السعاة بالبشاشة ، نكاية في خصمه الألفي ، ثم استخدم حيال الترك
سلاحا آخر وهو الرشوة ، فقدم الرشا والهدايا لصالح باشا
وبطائه ، ولرجال الباب العالي ، فكان لذلك كله أثره على ضفاف
البسفور ، كما بذل سفير فرنسا مساعيه نحو محمد على ، فبعث الديوان
إلى صالح باشا يطلق يده ويكل إليه التصرف المطلق في الأمور :
ولقد كان لفشل الألفي في محاصرة دمنهور لدفاع أهلها
عنها دفاعا مجيدا ومساندة عمر مكرم لهم بالتشجيع والإمدادات
أثره في إحباط الخطة المرسومة بالاشتراك بين الباب العالي
والإنجليز ، هذا بجانب ما بدا من تخاذل المماليك وتفككهم .

وقد انتهر محمد على فرصة انهماك الألفي في محاصرة دمنهور
فاتصل بجاشية صالح باشا بالهدايا والرشوة ليجذبهم إلى صفه .
وبدأ الموقف يتحول إلى جانب محمد على وأخذت الخطة
الإنجليزية التركية تتجه نحو الفشل .

أحدث المال في نفس صالح باشا وبطائه تحولا كبيرا
في النفوس . وقد زاد هذا التحول فشل الألفي في الاستيلاء

على دمنهور، وما تبين لصالح باشا من انقسام الماليك ، فإن البرديسى لما رأى ارتباط الألفى بالإنجليزى أعرض عن تأييده لحقده عليه ، ولأنه كان من أنصار الالتجاء إلى فرنسا . كما تبين لصالح باشا عبث الاعتماد على الماليك والركون إليهم ، هذا بجانب تأييد الشعب لمحمد على ، وهو أمر كان فى المقام الأول . كل ذلك جعل الموقف يتحول إلى صف محمد على تباعا ؛ إذ سرعان ما صحت عزيمة صالح باشا على تثبيت محمد على فى الولاية ، بناء على ما رآه فى الموقف فى داخل البلاد ، وقد تم الأمر على هذا فى مقابل أن يؤدى محمد على إلى الباب العالى ٤,٠٠٠ كيس ، وأن يجعل ابنه إبراهيم رهينة بالآستانة على هذا المبلغ ، وانتهى الأمر أخيراً بورود المرسوم إليه ، متضمناً لإبقائه واستمراره على ولاية مصر ، « حيث أن الخاصة والعامة راضون بأحكامه بشهادة العلماء وأشرف الناس » .

فشلت المؤامرة وأفلح صالح باشا من أبى قير فى أكتوبر سنة ١٨٠٦ ، وفشلت الآمال البريطانية التى نشطت من أجلها عن طريق الضغط السياسى ، ولكن لم تنفض بريطانيا يدها رغم هذا كله من الموضوع ، ولم ييأس الألفى أن يأمل فى عون الإنجليز ، فاستمر متصلاً بقنصل إنجلترا فى مصر ، يطلب من دولته

النجدة في عاربة خصمه ، وظلت بريطانيا عند وعدها الاول
له ، تحاول تحقيقه من خلال نظرتها لرعاية مصالحها في مصر ،
في التمتع بوحدة النفوذ فيها ، وإذا كان حرصها على ذلك منبعا
من خوفها وقوع البلاد في قبضة الفرنسيين فقد كان لتغيير الموقف
الدولى إذ ذاك أثره الاكبر في تغير وسائل علاجها لتنفيذ
أغراضها في البلاد ، فلما توطدت العلاقات بين تركيا وبين فرنسا
تهددت مصالح بريطانيا في الشرق ، وسامت بالتالى العلاقات بين
تركيا وانجلترا ، عندئذ تهيأت الظروف — في ظل الرغبة
الملحة — لأن تنهج بريطانيا إزاء مصر والماليك اتجاها أكثر
جديا عما فعلته من قبل ، من أجل صيانة مصر من النفوذ
الفرنسى ، وضمان سيادتها على البلاد ، وذلك بإفاد حملة فريزر
عام ١٨٠٧ .



تجدد المطامح البريطانية

وحملة فريزر على مصر (١٨٠٦ - ١٨٠٧)

انجلترا من قبل تحاول الاكتفاء بصيانة مصالحها بالخيولة دون عودة النفوذ الفرنسى وإعادة تنظيم القوة المملوكة ، وتمكينها من السلطة فى البلاد كقوة موالية لها ، عندما كان الموقف لا ينم عن خطر عاجل ، وعندما كانت قادرة على تهيئة أغراضها بالضغط الدبلوماسى تارة والدسائس تارة أخرى ؛ لترجيح كافة نفوذها فى البلاد ، فلها فشلت وتغير الموقف وزاد حرجا ، زاد على أثره حرصها على صيانة مصالحها فى الشرق لاسيما مصر ، فأثرت العمل الحربى ، ترسل أسطولها يهدد الباب العالى من جهة ، ويحاول التأثير عليها لإبعادها عن نفوذ فرنسا عن طريق احتلال الإسكندرية من جهة أخرى . وتحاول الخيولة بالعمل الأخير دون وقوع مصر فى قبضة الفرنسيين معتمدة على قوة

حلفائها من المماليك ، ثم تتمكن بالتالى — بفضل وجود قواتها فى البلاد والاعتماد على قوة المماليك — بتنفيذ الخطة السياسية التى رمت إليها من قبل ، بتمكين هؤلاء من الحكم ، حتى تضمن مستقبلا ، رعاية مصالحها ؛ لذلك إذا كانت حملة فريزر فى ذاتها جزءا من التخطيط الحربى البحرى فى البحر الأبيض المتوسط الذى استدعته ضرورة العمل الحربى ، فى استجابة للموقف الدولى المتغير لصيانة مصالح بريطانيا فى الشرق ضد امتداد النفوذ الفرنسى ، فقد كانت الحملة من جهة أخرى وسيلة لغايات سياسية تحقّقها وتمكّن حلفاءها البكوات والمماليك من النفوذ فى مصر من جهة أخرى لضمان نفوذها السياسى عليها . مستقبلا ، بهذا لم تكن أهداف حملة فريزر الرئيسية فى حقيقة الأمر هى احتلال البلاد ، إلا فى حدود ما بذله من نشاط قنصل بريطانيا فى مصر لتحويل أغراض الحملة بعد وصولها :

تطور الموقف الدولى :

شاء نابليون أن يثير المتاعب الخصميه روسيا وبريطانيا فى الشرق وبسط نفوذ فرنسا بين ربوعه ، فاتجه يثير المسألة الشرقية أمام

الدولتين ، ويحاول بسط نفوذه على حسابها من خلال دعم علاقته وسياسته بتركيا .

خطب نابليون ود الباب العالي ، ولما كانت تركيا إذ ذاك ترنو إلى التخلص من النفوذ الروسي ، أسرعت فاستجابت إلى نابليون ، فبعث الباب العالي مبعوثه مهيب أفندى إلى نابليون لتوطيد صلات الود والرعاية والتقدير ، وسرعان ما ظهر أثر ذلك عندما تردد الباب العالي في التصديق على وثائق معاهدة الصلح بينه وبين روسيا ، ومن ثم بدأت المتاعب أمامها في عدم السماح لسفنها بعبور المضائق التركية ، ولم يقف الأمر عند هذا بل انتهى التقارب بين تركيا وبريطانيا أن امتنعت الأولى عن الإسراع في تجديد محالفتها مع الأخيرة معتذرة بحلول شهر رمضان ، وقد بدأ الرعب — الذى كان سائداً في تركيا من روسيا — في الزوال بفضل معاضدة نابليون الذى كان يتعنى إثارة المتاعب لخصميه .

وبدأ عهد النشاط الفرنسى في الشرق ، وعين سبستيانى سفيراً فرنسياً في تركيا لتوثيق روابط الصلة والمودة ، وتأکید عزم فرنسا على تدخلها في كل ما يمس تقسيم أملاك الإمبراطورية العثمانية .

أما روسيا فقد لاح لها أن بريطانيا ليست جادة في الشروع في تنفيذ السياسة المتفق عليها سرّاً بشأن تركيا ، لكنها أوضحت لبريطانيا أنه في حالة تدخل فرنسا في شئون تركيا يجب أن تشرع بريطانيا فوراً في إرسال أسطولها في مظاهرة إلى البوغاز التركية الأخرى ، فإذا ما وضعت الحرب أوزارها بين الدولتين وبين تركيا على أساس جلاء القوات البريطانية عن مصر ، رأت ضرورة جلاء جود نابليون عن إيطاليا . ولكن لم يكن هذا برنامج زارتورسكى الروسى وحده ، فقد كان يدبر ضرورة تدخل روسيا بدعوى مساعدة مسيحيي الأتراك وفصل دويلات الدانوب السلافية .

وقام ستروجنوف سفير روسيا في بريطانيا — بتوضيح سياسته إلى المستر فوكس وزير خارجية بريطانيا على أن يكون هدف سياسته إظهار رغبة روسيا في المحافظة على أملاك تركيا من أطماع نابليون ، وكان فوكس حذراً لا يود إلا أن يصل إلى عقد معاهدة صلح مع نابليون ، وقد أقامه السفير الروسى أنه من الواجب الوصول إلى تسوية مسألة التوازن الدولى بين الدول العظمى فى أوربا ، وبين فرنسا ، وعلى الأخص حماية مصر من الاحتلال الفرنسى الذى قيل : إنه هدف بونابرت ، وذلك تأمينا لمواصلات بريطانيا فى الهند ، وكان جواب وزير خارجية

بريطانيا موضحاً بأن موضوع حماية أملاك تركيا ليس عملياً ، وأنه لو فرض وقامت فرنسا باحتلال مصر ، فلا تتعرض الهند لخطر محتمل ؛ ولكنه أراد أن تكون سياسته واضحة ؛ عندئذ كتب إلى سفيره في بطرسبرج يقول : « إنه إذا تم عقد معاهدة بين تركيا وفرنسا من مقتضاه التصريح للأخيرة باحتلال بعض الأملاك التركية بالقوة ، فقد يصبح من المهم لكل من روسيا وإنجلترا التدخل المسلح لمنع ذلك » .

وتطورت الحوادث ورأى أرثربرت السفير البريطاني أن ينصح حكومته بإرسال قوة بحرية من بعض السفن ؛ لتهديد البيت العالي ، ثم طلب في تقريره أن تتولى الأدميرالية إصدار التعليمات بذلك إلى قائد الأسطول في البحر الأبيض المتوسط ، ثم أثبت في تقريره أن الأسطول التركي إذا لم يتمكن من الالتجاء إلى مكان يحميه ، وأنه إذا سقطت عاصمة تركيا انقطعت علاقاتها بآسيا ، ولذلك يصبح الطريق إلى الهند في مأمن .

وشاء الباب العالي عزل كل من ولاية مقاطعتي ولاشيا وملداقيا المواليين لروسيا ، اعتماداً على تشجيع فرنسا ، فتأزم الموقف إذذاك ، وثارَت روسيا ، وعدت ذلك خرقاً لاتفاقية سنة ١٨٠٢ التي كانت تشترط عدم إجراء تغيير إداري في هاتين

المقاطعتين دون مشورة روسيا ، وإزاء ذلك ، تراجعت تركيا ، لعدم وقوف فرنسا في جانبها في هذه الأزمة فأعادت تعيين الواليين اللتين عزلتهما وكانا ألد أعدائها ، وظن سفير فرنسا أن في ذلك حلا كافياً للموقف غير أنه لم يفتن إلى ما كان يرغبه التقيصر إذ ذاك من إعادة السماح للأسطول الروسى للدخول إلى المضائق ، إذ لم تكن تهمة كثيراً مسألة فردية لاثنتين من اليونان عادا إلى أملاكهما ، وذلك لأن المعاهدة لم تجدد ولم تقطع تركيا علاقتها بفرنسا ، وقبل الاستجابة إلى هذه المطالب الروسية من تركيا بالطريق الدبلوماسى ، كانت جيوش الأمير ميتشلسون قد دخلت إلى ملدافيا ، وبذلك أرادت روسيا أن تجر في ذيلها بريطانيا للقيام بعمل عدوانى من جانبها ضد تركيا ، وقد ارتكب السفير البريطانى خطأه الكبير ، عندما أراد أن يستدرج الأمير الروسى للانسحاب ، ظنا منه أن ذلك مدعاة لعدم تدخل فرنسا ، بل ولقطع صلتها بالأتراك ، فقد سبب هذا الخطأ طغيان نفوذ فرنسا على الباب العالى ، مع أن بريطانيا كانت تريد العكس ، ورغم وجود سفن الأسطول البريطانى المعقود لواقها للقائد البحرى لويس ، فقد أعلنت تركيا الحرب على روسيا في ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٠٦ ومن ثم أسرعت الحوادث الدولية لتغير الموقف في بريطانيا إزاء تركيا فتسير في خطوات

حاسمة لمواجهة الموقف، وقد ألقت هذه الحوادث آثارها على مصر
استجابة لهذا الموقف الدولي المتغير فيما انتهت إليه من إرسال حملة
فريرز الاستيلاء على الإسكندرية .

فلقد قررت الحكومة البريطانية في نوفمبر سنة ١٨٠٦ العمل
بالاتجاهات التي كان يشير إليها السفير البريطاني من وقت طويل ،
فتقدمت بريطانيا بأسلوب جديد إزاء الموقف فحثت سفيرها
على أن يبذل مجهوده لإقناع تركيا باتباع سياسة أفضل ، ثم أبانت
له بأن ثمة قوة سترسل لتعزيز الموقف ، وتظاهر عروضا عند
الزوم ، كما أوضحت له أنه عند مقدم سفن هذه القوة يجب
أن يحيط الباب العالي علما بأنها قدمت إما للقتال أو للدفاع ،
وأن الحكم الفصل بين الأمرين هورهن بما ينتهي إليه مسلك
الباب العالي ، ثم دعت يطالب تركيا بإيقاف امتداد النفوذ الفرنسي ،
ولإلا فستتخطم الصداقة القائمة بين البلدين ، وأن بريطانيا
ترغب فقط مراعاة الالتزامات بالضبط فيما يختص بفصل الحاكمين
للمقاطعتين السابقتين ، ثم حرية المرور في المضائق ، ثم طلبت
بريطانيا من سفيرها أن يوضح أنه حتى بعد أن تستجاب هذه
المطالب سيبقى الأسطول البريطاني ، طالما كان وجوده ضروريا ،
لضمان أمن وحماية الباب العالي نفسه ؛ أما إذا أخفقت مساعيه

ولم تستجب هذه المطالب ، فعليه أن ينهى بعثته ، وبهذا يبدأ العمل العدائي بين البلدين ، ثم كلف السفير بجانب هذا أن يتوسط بين تركيا وروسيا في حالة الحرب القائمة بينهما على أساس الوفاء السريع بالشرطين الاثنین الأساسيين ، وأنه في حالة رفض وساطته ، عليه أن ينهى بعثته ، وبانتهاء البعثة الدبلوماسية يطلب قائد القوات تسليم الأسطول التركي ومعه إمدادات بحرية كافية ، وله أن يصحب طلبه بالتهديد بإطلاق قنابل الأسطول .

وروى أنه في حالة رفض الباب العالي ، تصدر الأوامر إلى الجنرال فوكس لاحتلال الإسكندرية بقوة قوامها ٥,٠٠٠ جندي ، على أن يكون الغرض من ذلك الاحتلال ، ليس احتلال مصر ، ولكن فقط - لمنع فرنسا من محاولة احتلالها ، ثم العمل على الإبقاء على نفوذ بريطانيا فيها بإيجاد حالة من التفاهم الدائم بين البلدين .

ولقد اشترط أن يكون اختيار قائد هذه القوة ممن تتوفر لديهم فوق صفات الجنودية الدبلوماسية أيضا .

مهمة فريزر :

أسرعت الحوادث بعد ذلك إلى نهايتها عندما اختمرت .

الفكرة في ذهن بريطانيا لتنفيذ الخطة الحربية .

وبينما كانت الحوادث في الآستانة تجرى سراعاً والسفير البريطاني يقدم إنذاره للباب العالي بما تقدم ، أبحر الأسطول البريطاني من قانس في يناير سنة ١٨٠٦ بقيادة دكورت .

ولقد رأيت تركيا أن الدخول في حرب مع بريطانيا أمر على تقيض مصالحها ، لذلك أرادت أن تستعمل السفير ، إلا أنه كان ساخطاً ، فشاءت الحيلولة بينه وبين الأسطول البريطاني ، فتقرر أن يودع السجن ، لكنه عندما علم بذلك دبر خطة حقاها للهرب من العاصمة التركية ، فدعا معظم أفراد الجالية البريطانية إلى وليمة على ظهر السفينة اندميون من أجل الترفيه ، وحدث أن غادرت السفينة الميناء فجأة ، وكان الضيوف لا يعلمون من السر شيئاً ، إلا أنها لم تلبث أن وقعت في كمين أعد لها ، ومن ثم سيق السفير إلى السجن ، وحيل بينه وبين الأسطول البريطاني .

ولما وصل دكورت إلى ميناء تندوس في ١٥ فبراير كان قد علم بأمر السفير ، فأبرق إلى الجنرال فوكس ليسرع بإرسال القوة البحرية إلى الإسكندرية .

وأبحرت القوة إلى الإسكندرية بقيادة الجنرال فريز

فى ٦ مارس سنة ١٨٠٧ من ميناء صقلية بقوة صغيرة معتمدة على قوة المماليك وضعف تركيا ، وكان قوامها جنود من المستعمرات البريطانية عددهم ستة آلاف جندى مشكون فى فرقتين ، ولم يكن من ضباطها من يعرف الشرق ولا أسهم فى الخدمة فيه عدا الجنرال ميد ، ويبدو أن الباب العالى هو ومحمد على كانا يتوقعان هجوما بريطانيا ، بدليل أن الوالى حاول إيفاد حامية من الجنود الألبانيين إلى الإسكندرية ، إلا أن قنصل بريطانيا المستر مست — الذى كان يعلم بأمر هذه الحملة البريطانية وموعد وصولها الإسكندرية — دأب يستدرج الوالى حتى ألغى أمر إيفادها ، ومن ثم قام محمد على إلى الصعيد يحارب المماليك ، ويحاول كسبهم إلى جانبه ، بينما تولى مست تأليب القبائل العربية لتساعده على استقبال الحملة وتسهيل مهاجمتها ، كما كتب للمماليك يمد لهم بالامل المرتقب .

وعلى غير علم — بما يكتبه القدر للحملة الغادرة ودون حساب لاحتمال تغيير الظروف الداخلية ضدها — تقدمت تلك إلى مصر ، لتواجه تحالف الظروف عليها ، وتشهد مصرع الخطة البريطانية التى جدت من قبل لتنفيذها ، وذلك بفضل تكتل المصريين

وحدثهم صفاً واحداً ، شعباً وجيشاً لمواجهة العدوان البريطاني على مصر .

وقبل أن تاتي الحملة مراسيمها في الإسكندرية بأربعين يوماً كانت بريطانيا قد فقدت صديقها وحليفها الألفى بالوفاة ، فخرت بهذا عميلاً قوى الشأن ، واكتفى الشعب بوفاة ، شر خصم كان مقدراً أن يكون ثغرة قوية في تماسك وحدته كما خسرت بريطانيا القوة التي كانت تتوقع العون على ידיدها في مصر .

كان الألفى ، والحوادث الدولية تجري سراعاً ، ينتظر مجيء العون البريطاني على أحر من الجمر ، ويرقب مجيء هذه الحملة ثلاثة شهور ، وقد طال انتظاره حتى شكوا فرسانه وجنوده لشدة ما اعترا كل من الجهد ، وهم يعسكرون في دمنهور ، فلم يسعه في النهاية إلا أن حمل عصاه واحلاً إلى الجنوب مقهوراً ، وكان يأمل أن يجعل من دمنهور معقلاً يقيم فيه حتى تأتية النجدة ، ولكنها تأخرت ؛ فلما تأزم الموقف ونفذ صبر من معه ، جانبه إخوانه وعشيرته ، فخذلوه ، فارتحل من البحيرة بجيوشه قاصدا الصعيد ، يملأ قلبه اليأس والقنوط ، في أوائل يناير سنة ١٨٠٧ وعلى الطريق المشرف على القاهرة ، رنا ببصره إليها متحسرا وكأنما كان ياتي عليها الوداع الأخير ، إذ ذاك وافته المنية في الطريق

في الوقت الذي كان الإنجليز يحثون السير في حماس نحو مصر ،
للالتقاء به ، ولكن شاء القدر أن يفصل بين القوتين ، فيؤثر
في مجرى الحوادث إلى حد كبير .

وخسر الإنجليز قبل مجيئهم قوة لا يستهان بها في عونهم على
تحقيق مآربهم ، وقد ترك الآلاني وراءه فراغا لم يستطع المماليك
ملؤه من أجل ذلك ، فقد تفرقت كلمتهم من بعده وأخذت كفة
محمد على تتأهل في ظل ذلك كد قوة موحدة في وجه الإنجليز ،
مات البرديسي فتخلص منه ، ومات الآلاني فاستراح منه فصعد
على أنقاضهما ، واشتد ساعده ، وكان الشعب يستعد لملاقاة
الإنجليز ، قوة بجانب قوة محمد على ، كل يكمل بعضه البعض ، ولم
يكن ذلك الشعب الخانع ، الذي كاد يحطمه تماما العهد العثماني
زبل كان ذلك الذي برز في جـولاته في الكفاح ضد طغيان
الاستعمار الفرنسي وضد الطاقة من الحكام الأتراك .

وقد بدأت الثقة ترتد إليه إثر اختيار حاكمه بنفسه ، وتعبير
عن إصراره بصيانة هذه الإرادة ، وباستمرار في الكفاح من
أجلها ، فكان متوقفاً أن يقف ضد الغزاة كما كانوا من قبل ،
وأن يقف بجانب حاكمه الجديد كما كانت وقفته الرائعة من قبل ،

ومن ثم كان الموقف الداخلى فى مصر قبل مجيء الحملة غير مهاد السبيل ولا ميسورا أمامها .

واقرب الطرفان نحو النضال الحربى فى سواحل مصر ، والقدر يجلب عن كلاهما مدى قوة خصمه ، وتتقدم الحملة فى ثقة من عون المماليك واستتار بالقوة التركية فى مصر دون حساب لتطور الظروف الطارئة ، فلا تحمل على ظهرها سوى قوة محدودة .

وتتأى مصر لمقابلة العدوان فتزداد الجبهة الداخلية تماسكا وإن بدت فى البداية هيابة من الغزو ، فقد كان لثمار الالتحام الأول الذى قدر بعد ذلك أن يتم بين ساحة رشيد أثره الأكبر فى استكمال هذا التماسك ورد الثقة لآلها فى قوة روحية أعلى .

وبينما كانت الحملة فى طريقها إلى مصر ، كانت مصر تسمع أنباءها قبل أن تلقى بمراسيها فى الإسكندرية من الرسائل الواردة من الآستانة ، فأخذ الأهالى يستعدون لمقاومتها كاستعدادهم لمقاومة الحملة الفرنسية من قبل ، فتولى زعيمهم عمر مكرم زعامة هذه المقاومة الشعبية وشرع - كما يقول الجبرقى - فى فبراير سنة ١٨٠٧ ، - أهل الإسكندرية د فى تحصين قلاعها وأبراجها وكذلك أبو قير . . . ، وبجانب ذلك أخذت أنباؤها بحكم الطبيعة تؤثر

في نفسه الشعب حدث ثمة قلق ولفظ ، كما أخذت الأسعار في الارتفاع .

وبدأت الحملة تلقى بهراسيها في الإسكندرية ، فشاء أولا الأسطول القيام بعملية استطلاع ، فأقبلت أوائل مارس عام ١٨٠٧ سفينة إنجليزية إلى مياه الإسكندرية دون أن تنذر بأسباب حضورها ، وما لبثت سفينة أخرى أن جاءت الثغر في ١٤ مارس فاستدعت القنصل الإنجليزي ميست ، وسرعان ما استجاب الأمر لمقابلة من فيها ، ولما عاد أرسل مبعوثه برسائل إلى المالك في الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة الإنجليزية المرجوة ، واستدعائهم إلى الوجه البحري كي يكونوا في عونهم على الغزو ، بعد أن بلغهم آسفين بموت زعيمهم الألفي ، بينما كان محمد علي يحاول القضاء على المالك كقوة بالحرب تارة ومحاولة استرضائهم تارة أخرى باقتسام بعض النفوذ في البلاد .

استطول الثغر :

وعادت السفينة الإنجليزية في ١٦ مارس تتبعها بارجة كبرى وبعض السفن الأخرى وألقت مراسيها بالميناء الغربي ، ثم نزل منها ضابطان وطلبا مقابلة محافظ الثغر أمين أغا ، وكانت الإسكندرية

إذ ذاك تمثل في ذاتها إدارة تركية مستقلة عن إدارة مصر ، وكان حاكمها هو أمين أغا من ضباط الآستانة ، وقد تواطأ مع الغزاة على تسليم المدينة نظير رشوة من المال . وقد أعطاه هذا المال قنصل انجلترا ، فلما قابله الضابطان اتفقا معه على أن يسلم المدينة دون مقاومة ، ولم يكذب يطلع يوم ١٧ مارس حتى أقبلت العمارة الإنجليزية مكونة من خمس وعشرين سفينة بقيادة الأميرال لويس ، ثم أخذ جنود الحملة ينزلون مساء ذلك اليوم في الشاطئ العجمي ، ولم يلبث أن زحف الجيش إلى الإسكندرية ، وهناك عسكر الجنود تحت أسوارها وأرسلوا فصيلة منهم لاحتلال قلعة أبو قير ، وبعد مضي يومين من مفاوضات صورية بينهم وبين محافظ الثغر ، انتهى الأمر بأن سلم نفسه كأسير حرب ومعه معظم حامية المدينة ، ومن ثم دخل الإنجليز الإسكندرية ليلة ٢١ مارس دون أية مقاومة، وقد فر جزء من حاميتها إلى دمهور . واحتلت الحملة الإسكندرية وكتب القنصل الإنجليزي مست إذ ذاك يقول :

« لو أن محافظ الإسكندرية صمد للقوات مدة ٤٨ ساعة قبل عملية إزال الجنود الإنجليز إلى البر لما أمكن نزولهم ، لكنه

كان قد مل عسف الحكومة وظلمها ، كذلك لو شاء أهالى الإسكندرية منع هذه القوة من النزول لنم لهم ذلك بإغلاق أبواب أسوارها فى وجوههم ، غير أن أحوالهم كانت شديدة بأحوال المحافظ من حيث خيبة الأمل لكثرة ما لاقوه من ظلم واضطهاد .

ولقد كان لهذا النجاح أثره فى إنعاش آماله ، فأرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى المماليك يطلب إليهم أن يبعثوا إليه سراً برسول يأتهمونه ليلى عليه بمطالبهم ، وكان مست إذ ذاك يحاول جرب بلاده إلى احتلال مصر .

موقف الحملة من سطره السفرة:

ومن خلال الرياء الإنجليزى شامت قيادة الجيش البريطانى أن تكسب ود شعب الإسكندرية ، بعد أن أسلمته الخيانة للغزاة فتقدمت إليه بشروط شامت أن يلتزم الطرفان بها فيما يتعلق بتحديد العلاقات بينهم ، فاشترطوا مع ساكنيها - كما يقول الجبرقى - شروطاً منها : أنهم لا يسكنون البيوت قهراً من أصحابها بل بالمؤاجرة والتراضى ، ولا يذهبون المساجد ولا يبطلون فيها للشعائر الإسلامية ، وأعطوا أمين أغا الحاكم أماناً على نفسه وعلى من معه

من العساكر لهم بالذهاب إلى أى محل أرادوه ومن كان له دين على الديوان يأخذ نصفه حالا والنصف الثانى ، وجلا ، ومن أراد السفر فى البحر من النجار وغيرهم ، فليسافر فى حفاوتهم إلى أية جهة أراد ما عدا إسلامبول ، وأما الغرب والشام وتونس وطرابلس وغيرها فطلق السراح ولا حرج ذهابا وإيابا ، .


وكان من شروطهم أيضاً ، أنهم إن احتاجوا إلى قوامانية أو مال لا يكلفون أهل الإسكندرية بشئ من ذلك ، وأن بحكمة الإسلام تكون مفتوحة تحكم بشرائعها ولا يكلفون أهل الإسلام بقيام دعوى عند الإنجليزى بغير رضاهم والجماعات من أية بنديرة تكون مقبولة عند الإنجليز الموجودين فى الإسكندرية وقيميون مأمونين برعاية لحاظ أهل الإسكندرية ولم يحصل لهم شئ من المكروه ، من كامل الوجوه حتى الفرنساوية والجمارك من كل الجهات على كل مائة إثنان ونصف ، وعلى ذلك انتهت الشرط ، .

كل ذلك كانت أساليب الإنجليز فى تعبيرهم عن المرمى البعيد من وراء ذلك من محاولة مداراة حقيقة الاحتلال ، والحيولة دون إشعار أهل البلد بالتغيير بين حالتهم الأولى وما انتهت إليه

نحت حكميم ، بل وإبراز حكمهم في صورة بغير ما جبل عليه
خلق المعتدين دائماً ! . وذلك من أجل كسب ثقة المصريين وضمان
ولائهم لهم ، بهذه الأساليب التي تمثل في جوهرها معنى الرياء
وفي شكلها الأساليب الكفيلة في رأيهم لتعبئة مشاعر الرضا بين
الاسكندرانيين وغيرهم من سكان البلاد .



موقف الشعب من الحملة

أنباء الحملة تترى تباعا من الإسكندرية بعد احتلالها  وتختلف في تفاصيلها ، فتكثر الأشاعات حولها ، فستسمع البلاد لإيها دون أن تثبت من حقيقتها ، حتى استقرت أخيرا في الهاية أنباؤها في القاهرة فأدرك كنهها الناس ، ومن ثم بدأ الموقف يتغير لمواجهتها والاستعداد لإيقاف ما يمتثل أن ينتهى إليه الاحتلال من زحف إلى داخل البلاد . وكانت رشيد الساحة التى لقيت بريطانيا فيها هزيمتها الأولى على يد الوعى الصاعد للبقاومة الشعبية .

توارد أنباء الحملة :

وردت أنباء إلى القاهرة في ٢٣ مارس سنة ١٨٠٧ من رشيد عن ضرب الإسكندرية واحتلالها ، ولكنها كانت أنباء بحملة لا توضح حقيقة الموقف تماما ، فأفادت أن الإنجليز قد نزلوا إلى الثغر ودخلوه ، فاشتبه الأمر وأخذت الأفكار في التبليبل ، وكان قنصل فرنسا في مصر درويفتي قد رحل إلى رشيد ، عندما وردت

سفن الإنجليز إليها فلما بلغه نزولهم إلى البر رحل إلى القاهرة ،
وأبدى رغبته في السفر إلى الشام ومعه باقى الجالية الفرنسية
فى مصر .

واستمرت الشائعات حول الغزو تتناقلها الألسن دون
تثبت من حقيقة الموقف ، وكان محمد على إذ ذاك يحارب المماليك
بالصعيد ، وقد وردت أنباءه إلى القاهرة بانتصاره عليهم واستيلائه
على أسىوط فاختلفت أنباء النصر مع شائعات الحملة ، وتلهى
الناس قليلا بما سمعوه من قصص المدافع ابتهاجا بالنصر من القلعة
والأزبكية مدة ثلاثة أيام كاملة .

ومضت الشائعات فى سبيلها رغم هذا حول الغزو فقليل :
إن الإسكندرية ممتنعة على الإنجليز ، وأنهم نزلوا إلى رأس التين
والعجمى ، فخرج إليهم أهل البلاد والجنود فحاربوهم حتى أجلوهم ،
وقيل غير ذلك حتى أسرفت الشائعات فى القول حول
وصف الموقف دون معرفة ماجد بالإسكندرية التى كانت إذ ذاك
قد أعلنت تسليمها للفرقة ، وفر الكثير من جنودها الألبان
والأتراك إلى داخل البلاد ، وقد استمر هذا الوضع على هذا
الخاط و الشائعات عدة أيام فتضاربت إزاءها المشاعر بقدر
تضارب حقائقها .

وبلغت هذه الأنباء أحد زعماء الماليك في الفيوم وهو ياسين بك ، فأخذته نزعته الدينية ، فتحرك شمالا حتى بلغ دهنشور فأرسل للاحيد عمر مكرم والفاضى وغيرهما ، أنه تحرك بعد أن أخذته الحمية الإسلامية — ليواجه الغزو البريطانى وفى صحبته ستة آلاف من الجند ليرابط بهم بالجيزة أو قليوب، ويجهاد بهم فى سبيل الله ، « فكتبوا له إخبارية » مضمونها : إن كان حضوره بقصد الجهاد فينبغى أن يتقدم بمن معه إلى الإسكندرية وإذا حصل له النصر تكون له اليد البيضاء ، فإنه لا فائدة باقية فى الجيزة أو قليوب ... » وقد خشى المسئولون أن يكون وراء هذه النزعة مطامع خاصة ، فى الجيزة وغيرها ؛ لذلك وضعت خطة تحول دون تنفيذ سيره ومآربه .

فى ذلك اليوم الذى بدأ فيه هذا النشاط « ٢٧ مارس » تلقت القاهرة من صحیح الانباء ما أوقفها على جليلة الموقف من استيلاء الإنجليز على الإسكندرية وامتلاكهم قلاعها وسكنى قائدهم بيت القنصل .

وتسمع الناس لانباء الغزو فى أضوائها الجديدة ، وما انتهت إليه علاقة الإنجليز فى الثغر مع الأهالى ، من شروط شاء

الاحتلال تحديد علاقته بهم ، ولقد كان لثبوت حقيقة الغزو
آثارها في مجرى المساعر العامة بين المصريين .

هالة الجنود العثمانيين :

بدا تأثير ذلك بين الجنود خوفاً ووجلاً بأعيق مما بدا
في غيرهم ، وكان هؤلاء خليط من الأرنؤود والترك من المرتزقة
وغير النظاميين فئة لا تمها مصالح البلد إلا ما تؤديه خدمة
لاغراضها في إطار خدمتها في سلك الجيش العثماني ، دون مصالح
الاهالى أو مصالح مصر المباشرة فلم تكن تلك إذ ذاك وطناً لهم
يرتبطون به ارتباطاً روحياً ، فلما علموا بالغزو امتلأت قلوبهم
رعباً، وآثروا - والمحنة على أشدها - ترك المصريين وحدهم فيها، وإن
بدت آثار ذلك الغزو بين الشعب ، إلا أنها لم تنته بهم إلى التفكك
ونسيان الواجب كما بدت من هؤلاء . وقد كانت مصر وطنهم
الذى احتوهم دهرأ ، وعاشوا بينه مندمجين في حياة واحدة ،
وقد جمعهم من قبل وحدة الكفاح ضد الفرنسيين والإنجليز
والأتراك ، فليس بدعا أن يصمد الشعب ويفر غيره من الجنود
ذعراً أمام حقيقة الاحتلال .

فر كثير من الجنود الألبان منذ أن ابتليت الإسكندرية

بالاحتلال إلى داخل البلاد واحتوت دمنهور عدداً كبيراً منهم . فلم يسع شعب هذه البلدة عندما أثر ذلك على حاميتها حتى همت بدورها بهجرة هذا البلد ، إلا أنهم واجهوهم باللوم والتقريع ، فلما بلغ دمنهور جنود الإسكندرية الفارين أثاروا الرعب في قلوب حاميتها ، عندئذ انزعج كاشف دمنهور هو ومن معه من الجنود وعزموا على الخروج منها ، فلما أحس الأهالي غايبهم أعيانهم قائلين لهم : « كيف تركونا وتذهبون ، ولم تروا منا خلافاً ، وقد كنا فيما تقدم من حروب الآلاني من أعظم المساعدين لكم ، فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضاً في حروب الإنجليز ، ولكنهم رغم هذا لم يستمعوا إليهم لشدة ما داخلهم من الخوف ، فحملوا متاعهم ومعهم الكاشف ، وهاجروا من البلدة إلى قوة على عجل ، فلم يسع أهل البلدة إلا أن أبلغوا ذلك إلى زعيم مصر إذ ذاك عمر مكرم شاكين في ألم وسخرية .

يقول الجبرتي : « ولما شاع احتلال الإسكندرية داخل العسكر والناس وهم عظيم ، وعزم أكثر العسكر على الفرار إلى جهة الشام ، وشرعوا في قضاء أشغالهم واستخلاص أموالهم التي أعطوها للبتضايقين والمستقرضين بالربا ، وإبدال ما بأيديهم من الدراهم والفروش والفرانسة التي ينقل حملها بالذهب البندقي

والمحبوب الزر لحفة حملها حتى أنها زادت في المصارفة بسبب كثرة الطلب لها ، وبلغ صرف البندق المشخص الناقص في الوزن أربعائة وعشرين نصفاً، والزر مائتين وعشرين ، والفرانسة مائتين واستمرت تلك الزيادة بعد ذلك وسعوا في مشتري أدوات الارتمال والأمور اللازمة لسفر البر وفارق كثير منهم النساء ، وباعوا ما عندهم من الفرش الأنيقة ، .

موقف محمد علي في الصعيد :

توغلت أنباء الغزو إلى قلب الصعيد فنصل أنباؤها إلى محمد علي كما وصلت رسائل الإنجليز إلى زعماء المماليك فيتردد صداها بين جوانح الجميع تثير فيهم انفعالات متضاربة .

وإذ ترك آثارها هما ورعبا في نفس محمد علي ، فقد بدت بالنالى بين المماليك منعشة لآمالهم تملأ قلوبهم بالرجاء لتحقيق مآربهم في البلاد ، وقد قربت الأحداث بين هذين الطرفين المتخاصمين ، فأخذ محمد علي يعمل لمصالحهم وأخذ هؤلاء في فرض شروطهم عليه ، واحتدمت النزعات بين الطرفين في شكل مغالبة ، يقوم محورهما على رغبة كل في نيل مآربه على حساب خصمه .

كان محمد علي يعلم مقدما من الباب العالي باحتمال غزو الإنجليز

مصر عندما هم بالتوجه إلى الصعيد لمحاربة المماليك وإخضاعهم بالقوة ؛ ليتفرغ لما يحتمل أن يحدث ولكنه لم يفته مع هذا أن يستخدم المصالحة أولاً لبلوغ هدفه عند اللزوم ؛ إلا أنه آثر في البداية المضى في الحرب معهم حيث لم يجد ما يدفعه للتعجيل باستخدام أساليب المصالحة .

طلب وهو بالصعيد ثلاثة مشايخ من القاهرة للتأثير عليهم من خلال النزعة الإسلامية ؛ ليسكفوا عن الحرب ، ويقفوا معه في المحنة في مصالحة بين الطرفين بينما كان يركز اهتمامه على أداة الحرب لإخضاعهم .

فوصل المشايخ إلى ملوى وهناك استأذنوه في الذهاب إلى ما أتوا إليه للسعى للصلح ، ولكنه تركهم في ملوى ، وذهب إلى أسيوط وأودع الجماعة بمنفلوط ، ثم تلاقى مع الأمراء وحاربهم حتى ظهر عليهم ، وعند ذلك حضر المشايخ المذكورون فأرسلهم إلى الأمراء ، وكانوا بالجانب الغربي بحماية ملوى ، فتفاوضوا معهم فيما أتوا بسببه . ولما كانت الثقة قد تحطمت بين المماليك ومحمد علي فقد ترددوا في الأمر في البداية وزادهم في الأمر ترددا شعورهم بالقرب من مساندة الإنجليز لهم لتحقيق مراميهم . إذ ذاك أجابوا على رسل محمد علي قائلين : « كم من مرة يرسلنا

فى الصلح ثم يغرب بنا ويحاربنا ، مفتدين أمامهم مخالفته لا كثر
الشروط التى عقدت بينه وبينهم . ثم اختلفوا فيما بينهم وتشاوروا
فى الأمر . ولم يكن هؤلاء متأسكين فى الرأى تماما ، فلما علم
محمد على بأنباء احتلال الإسكندرية وإرسال رسلهم إلى المماليك
بالوجه القبلى ارتبك فى أمره ، ومن ثم أسرع بحث خطى الصلح ،
ويعمد يده مضطرا فى سخاء لاسترضائهم ، وقد ثبت فى نفسه
كما يقول الجبرقى : « استيلاء الإنجليز على الديار المصرية » .
وكان قد اعتزم على الهجرة إلى الشام . وكان يتوقع سرعة مجيئهم
إلى القاهرة .

بين البكوات المماليك :

وبينما كان محمد على يبدو مهموما إزاء أنباء الإسكندرية
كانت رسائل الإنجليز تفيض على الممالك بالبشر والرجاء .
وقد اختلفت آراؤهم حول الموقف فأخذت بعضهم النزعة الدينية
حتى أحجم عن تلبية نداء الإنجليز ، ولكن كان جمهورهم يرى
فى الأمر فرصة قلما تعوض ؛ لتحقيق مآربهم ولكن فى تردد
مخافة لومهم من سكان البلاد لانضمامهم إلى أعداء الدين كما كانوا
يعتقدون .

يقول الجبرتي :

« فلما وصلت الممالك رسل الإنجليز اختلفت أراؤهم وأرسلوا إلى عثمان بك حسن غير مرة ، يستدعونه للحضور : فامتنع قائلا : « أنا لا أتصر بالكفار ، وقد وافقه على رأيه عثمان بك يوسف . أما سائر الجماعة فقد اختلفت أراؤهم وهم إبراهيم بك الكبير وشاهين بك الراوى وشاهين بك الالني وباقي الأمراء .

ومهما يكن الأمر ، فقد كان كل اهتمامهم رعاية مصالحهم ، وقد رأوا السير في الصلح مع محمد علي مع مراقبتهم الموقف حتى ينجلي بينه وبين الإنجليز ، على أن يتباطئوا في تنفيذه ؛ ليتمكنوا في النهاية من إعلان ولائهم لمن يصبح في يده القدرة على تحقيق هذه المرامي .

واجتمع المشايخ بهم للمرة الثانية، فدار بين الطرفين جدل لا يعبر عن الحقيقة بقدر تعبيره عن مغالبات لا تنزاع كل حقه على حساب الآخر ، فلما تساءل الممالك عن المراد بالصلح كان جواب المشايخ أن المراد منه هو راحة الطرفين ورفع الحروب واجتماع الكلمة ، ولكنهم أضافوا قولهم لاستجلاء الموقف ومحاولة إقناعهم بإثارة النزعة الدينية قائلين :

« لا يخفى كم أن الإنجليز تحاصمت مع سلطان الإسلام وأغارت

على ممالكهم وطرقت ثغر الإسكندرية ودخلتها وقصدهم أخذ الإقليم المصري كما فعل الفرنسيون .

غير أن ذلك لم يعجب زعماء الممالك وعدوه مجاوزا الواقع فشاءوا تصحيح موقف الإنجليز كما بدا في ظنهم قائلين بأن « الإنجليز قد أتوا باستدعاء الألقى لنصرتنا عندئذ أجاب المشايخ: « لا تصدقوا أقوالهم في ذلك وإذا تملكوا البلاد لا يقدر على أحد من المسلمين ترحالهم . ثم حاولوا المقارنة بينهم وبين الفرنسيين ليزيدوهم نفورا من الإنجليز فاستطردوا بطرقون الناحية الدينية أمامهم فقالوا :

« ليسوا كحال الفرنسيات فإن الفرنسيات لا يتدينون بدين ويقولون بالحرية والتسوية ، وأما هؤلاء الإنجليز فإنهم نصارى على دينهم . . . ولا تخفى عداوة الأديان ولا يصح ولا ينبغي فيكم الانتصار بالكفار على المسلمين ولا الالتجاء إليهم . وأخذ رسل محمد على من المشايخ ينصحونهم فيمعنون في النصيح من خلال الفكرة الإسلامية، ويذكرون الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . وكان يصحب المشايخ مصطفى أفندي كتحذاه قاضي العسكر يحادثهم باللغة التركية ويترجم لهم ذلك .

وقد جاء رد الممالك عليهم في ذلك يدل على وعى ذاتي

لمصالحهم وفهم عميق لشخصية محمد على وفطنته الماكرة التي تستهدف في رأيهم وفي واقع الأمر الحيلولة دون تحالفهم مع الإنجليز ضده . وقد أفصحوا عن مدى ثقتههم لمحمد على ونواياه إذ قالوا :

« كل ما قلتموه وأيدتموه . . نعله ، ثم استطردوا يبدون تخوفهم منه على ضوء العلاقات السابقة بينه وبينهم ، فهو في رأيهم » غدار لا يثق به ولا وعد ولا يبر في عين ولا يصدق في قول ، وقد تقدم أن يصطلح معنا على أثر ذلك يأتي لحربنا ويمنع عنا ما يأتي إلينا باحتياجاتنا من مصر ، ويعاقب على ذلك من يأتي من الباعة والمتسببين إلى الناحية التي نحن فيها ، ولا يخفاكم أنه لما أتى القبودان ومعه الأوامر بالرضا والعفو الكامل عنا والأمر له بالخروج . فلم يمثل وأرسل إلينا وخذعنا ، وتحيل علينا بإرسال الهدايا . وصدقناه واصطلحنا معه ، فلما تم له الأمر قدر بنا وما مراده يصلحنا إلا تأخرنا عن ذهابنا إلى الإنجليز . فلا نذهب إليهم ولا نستعين بهم . وإن كل مراده يعطينا بلادا يصلحنا عليها . . فها هي البلاد بأيدينا وقد عمها الخراب باستمرار الحروب من الطرفين ، وقد تفرق شملنا ، وانهدمت دورنا ولم يبق لنا ما نأسف عليه أو نتحمل المذلة من أجله ، وقد مات

لأخواننا ، فنحن نستمر على ما نحن عليه حتى نموت عن آخرنا
ويرتاح قلبه من جهتنا .

جاء رد المشايخ عليهم يعبر عن رغبة ملحة لاستدراجهم للصلح
رغم هذا ، بدافع ظروف الموقف وحرصه ، فقد قالوا كمن يأسف
عما حدث وفي شكل استعطاف : « هذه المرة هي الأخرى . وليس
بعدها شروط حرب بل بعدها الصداقة والمصافاة ونعطيك
كل ما تطلبتموه من بلاد ، ولو طلبتم من الإسكندرية
لإلى أسوان لا نمنع ذلك بشرط أن تكونوا معنا بالمساعدة
في حرب الإنجليز ووقعهم على البلاد . وأيضاً تسهرون بأجمعكم
من البر الغربي . . والباشا وعساكره من البر الشرقى . وعند
انقضاء أمر الإنجليز ورجوعكم إلى بر الجزيرة نعقد مجلس الصلح
يحضره المشايخ والنقيب والرجا قلبه وأكادبر الفكر . وإن شئتم
عقدنا مجلس الصلح بالجزيرة قبل التوجه لمحاربة الإنجليز . ولا شر
بعد ذلك أبداً فالتخذوا لذلك وسار الفريقان إلى جهة مصر . .
وإذ تنجح محاولات محمد على في تدارك الموقف مع المماليك
استجابة للظروف إلى حد كبير فقد كان لنشاط قنصل فرنسا
في مصر الميسيو دورقيني آثارها أيضاً في استئالة هذه الفتنة لكشف
عون الإنجليز ، إذ أرسل إليهم الميسيو مانجين ينصحهم ألا ينجحوا

إلى جانب الإنجليز ، وقد رضوا بالصلح ولكن في غير إخلاص
وفي مطلع نحو عون الإنجليز .

بيع الشعب :

وبينما كان هذا التفاعل بين هذه الشراذم يشتري في النفوس
طمعا في الهيمنة على النفوذ في مصر كان الشعب من وراء هؤلاء
يشعر بالخطر فيستعد له تحذره — كما كان نهجه من قبل — الثقة
والشعور بوحدة المصير والرغبة لصيانة مقومات حياته . تلك
الأصول القومية التي كانت إذ ذاك تأخذ في النمو في إطار العكرة
الإسلامية وقد عرف من قبل سبل الكفاح والنضال .

غدت رشيد تعد نفسها لمواجهة الإنجليز ونشطت القاهرة
تهيأ لذلك نفسيا وعمليا ، ودمهور ترنو الحوادث بعين الحرص ،
بعد أن هجرها أخلاط الجنود ، في ثقة دون أن تهتز أمام الحوادث
وحدها ، وقد ربط هؤلاء ومن علم من الشعب بأمر الحملة شعور
واحد لغاية واحدة .

واقرب الاتجاهان من الالتقاء والتلاحم ، الاتجاه الشعبي
الصاعد في مشرق مصر الحديثة والاتجاه الاستمراضي الغاصب
وكانت ساحة اللقاء بين شعب أعزل إلا من الإيمان بحقه وجيش
إنجليزي مسلح بعتاده الحديث — هي رشيد .

الزحف نحو رشيد

وهزيمة أنجلترا الأولى

بينما كان المصريون يفكرون في تدبير شئونهم ، ومشاعر محمد علي والماليك تستخدم بحثا وراء رسم خيوط المصالحة كل وفق أهدافه . كان الإنجليز في الإسكندرية يفكرون في تعزيز نجاحهم الحربى فيها بامتداد الغزو شرقا حتى رشيد . وقد كان وراء هذه الخطة التى يسأل عنها القنصل مست أمام التاريخ . رغبة ملحة منه لاستدراج بلاده لاحتلال البلاد لتزداد بهذا تمكنا من تنفيذ الخطة السياسية التى سعت إليها بريطانيا من قبل . وضمنان مصالحها فيها رغم أهداف الحملة المحدودة .

أنعش نجاح الحملة الأولى بالاستيلاء على الإسكندرية ، القنصل مست ، فبعد أن أرسل بتاريخ ٢٢ مارس خطابا إلى الماليك يستدرجهم لمعاونة الإنجليز بشتى ضروب الإغراء . أتبع ذلك بنشاط آخر شاء به جر بلاده لاحتلال مصر .

فقد حاول إقناع القائد الإنجليزى فريزر بإرسال قوة

من الجنود الإنجليز على النيل باحتلال رشيد محاولاً بهذا إنعاش
الآمل في قلوب المماليك وطمأنتهم بقرب تحقيق آمالهم واستدراجهم
لمعاونة الحملة على تحقيق ما كان يصبو إليه هذا القنصل من أغراض
استعمارية على حساب مصر . وكان هذا يشق في قوة المماليك ويرجو
الخير على يديه .

ولكى يؤثر على فريزر لإنفاذ الحملة إلى رشيد واحتلالها
استخدم الغش والخداع وسائل للإقناع تبين له في تقرير مطول
مدى الحرج الذى يحيط بالجيش الإنجليزى فى الإسكندرية
إذا لم يتقدم باحتلال رشيد . فلم يعد فى رأيه فى مدينة
الإسكندرية كلها إلا التموين الذى يكفى أهلها يوماً واحداً
فإذا لم يقم على الفور باحتلال رشيد ، عرض أهل الإسكندرية
وجنوده للجاعة . ولم يلبث فريزر أن صدق ما أنباء به
ذلك القنصل . فهم بإعداد حملة وأمرها بالتحرك شرقاً لاحتلال
رشيد ، دون ما تدبر ولا دراسة عميقة للوقوف ولو كان هذا
القائد فى مصر عام ١٨٠١ لعلم أن القائد الفرنسى مينو قد قاوم
حصاراً مدته سبعة أشهر ، قوته أكثر من سبعة آلاف جندى
بريطانى ، وقد أغلق فى وجهه ميناء الإسكندرية وكان إذ ذاك
فى موقف لا يتمكن من الحصول على أية إمدادات من البحر

كما هو متاح للإنجليز ولكن كان قصر نظر فريزر هو الذى مهد مست أن يغشيه ويغرر به حتى هم بإعداد هذه الحملة التى لاقت فيها بريطانيا هزيمتها .

وقبل أن يتحرك الجيش تلقى من الأنباء فيما كتبه إليه قنصل بريطانيا فى رشيد المستر برتش ما أوقفه عن حال مصر ومستوى قواتها المحاربة . وبعد أن درس الموقف صححت عزيمته على احتلالها فجهر حملة قوامها ألفان من الجنود ، وعهد على رأسها الجنرال ديكوب ثم أمرها بالتحرك لاحتلال رشيد .

الزحف نحو رشيد :

سار هذا الجيش بقيادة من الإسكندرية يوم ٢٩ مارس فقطع المسافة بين البلدين سائراً على مسطح من الرمال تغتوره تلال كيبانية استنفدت الكثير من قوى الجيش فى تحركه بعتاده وخيله فبلغ رشيد فى اليوم التالى ومن ثم أخذ يتأهل لدخولها صبيحة يوم ٣١ مارس .

استعداد رشيد :

كان فى رشيد إذ ذاك حامية تبلغ ستائة جندي تحت إمرة

محافظها على بك الشجاع ، فاعتزم حماية المدينة من الغزاة غير مستند إلى قوة هذه الحامية الصغيرة فحسب، بل على المقاومة الشعبية المدنية ، وجد المحافظ في الاستعداد للقتال ضد الغزاة ، وشامت المدينة الباسلة أن تضطلع بالدفاع وحدها . فتفتدى الشعب كله ولم تطلب من القاهرة عوناً ، ولم تنتظر أمراً بالدفاع عنها ، بل انطلقت تدبر شئونها بنفسها في ثقة كبرى لتكتفى على الأقل شرعب الجنود الألبان والترك الذين اشتروا بذلك في القاهرة ، وقد كانوا لقيفاً من أخلال السلطة العثمانية الأرناؤوط والدلاة وغيرهم .

خطة رئيسية :

ووضعت رشيد الخطة ، فأمر حاكمها بإبعاد مراكز التعداد في رشيد إلى الشاطئ الشرق للنيل ، كي يقطع خط الرجعة على احتمال ارتداد جنود حاميته إلى هذا الشاطئ إذا ما سولت لهم أنفسهم ذلك ، ولكي يملأ نفوسهم عزماً على الدفاع . فلا يسلبوا العدو كما سلبت حامية الإسكندرية ، وبهذا ركز مشاعرهم حول الاستبسال في الدفاع بعد أن أصبح النيل من ورائهم والعدو أمامهم ثم أمر الحامية إلى التراجع داخل

المدينة وأن يتحصنوا والآهالى بال منازل فى استعداد للقتال على
ألا يبدأ ذلك إلا بعد أن تصدر إليهم الأوامر بإطلاق النار .

هزيمة الجيوش الإنجليزية :

تقدم الإنجليز ولم يجدوا ثمة مقاومة خارج رشيد وقد بدت
وكان حاميتها قد اعتزمت إخلاءها وتسليمها أسوة بما حدث
بالإسكندرية ، فتوغلوا فى المدينة ودخلوا شوارعها وتحسّسوا
جوانبها فزادوا اطمئناناً . عندئذ شاءوا التخلص من متاعب
السفر فانتشروا فى الطرق والأسواق بحثاً وراء أماكن يستريحون
فيها ، ولكن لم يدم لهم الأمر طويلاً إذ لم يشأ حاكم المدينة
أن يتركهم ينعمون بالراحة ، فأكادوا يستقرون حتى أصدر
ذلك أمره بإطلاق النيران على هؤلاء الغزاة . ومن ثم انهال عليهم
الرصاص من الأهالى من كل حذب وصوب من النوافذ والأزقة
ومن الأسطح ، فلما فوجئ العدو بهذا الرصاص المنهمر عليهم
بعث فى قلوبهم الرعب فألقوا ما بأيديهم من أسلحة ، وطلبوا
الامان ، فلم يلتفت إليهم وأخذ الكثيرون يسقطون صرعى
أمام هذه المقاومة التى دهمتهم فى حماس وعنف ، حتى قتل القائد
الإنجليزى ويكوب كما قتل معه كثير من ضباطه ، ولأذ نفر

من الإنجليز بالفرار موثرين العافية على النضال ، بينما فر ليفيف من الأحياء في حالة من اليأس متقهقرين نحو الإسكندرية عن طريق « أبوقير » .

وهكذا انتهت المعركة الحربية بهزيمة الجيش الإنجليزي وقد بلغ عدد قتلاه ١٧٠ قتيلا و ٢٥٠ جريحاً أما الأسرى فقد بلغ عددهم ١٢٠ أسيراً .

وقد استطاع الأهالي التعبير عن مشرق جديد للشعب بدت بذوره من قبل وكان اتجاهها صاعداً من طليعة الروح القومية وقد تجلى في هذه المعركة كما تجلى من قبل في كفاح الفرنسيين فثل محورا من التضامن والتساند والشعور بوحدة المصير والثقة بالنفس ، وكانت معان تدور كلها في إطار الفكرة الدينية وقد تجلت صفحة مشرقة في تاريخ الكفاح الشعبي ضد الغزاة في مصر .

أبناء النصر :

بلغت أبناء المعركة الإسكندرية وكان قائدها في شوق لسماعها ولما لم يكن يتوقع أن تنتهي بهذه النهاية المؤسفة ، فقد أسف لسماع أنبائها ، وما لحق جنوده من الهزيمة ، وقد وصف فريزر

هذه المعركة بأنها كانت : معركة غير متوقعة و كارثة فادحة
حلت بقواته .

وارتدت أنباء المعركة على سائر الشعب فأحسوا بغبطة النصر
وأنعشت أنباؤها الآمال وبعثت في الجميع الرجاء .

الجنود النازحة تترد إلى أوكارها المقفرة فتنتشى بالأمل
وتطمع في البقاء ومداومة القتال ، والشعب الصامت يزداد ثقة
على ثقة ، فيحس بتدفق الحياة في جسمة ، والنسيم الفاتر
يروض أجنحته ليحمل إلى الناس بشرى المشرق الجديد ،
وطيوف النصر تمس القلوب فتهفو وتحتلج وكأنما أصبحت رشيد
زهرة تفوح وطلاقة تفيض على من حولها بالبشر والبهجة ،
وقد ارتدت الطمأنينة إلى النفوس وأخذت تمتلئ بلون جديد
من الحماس .

أنعشت هذه الأنباء جنود حامية دمنهور الذين فروا من قبل
في جبن مع كاشفهم منذ دخول الإنجليز الإسكندرية ، فدفعتهم
إلى العودة إلى دمنهور ، وهم يشعرون بالطمأنينة ، وأخذت
الأنباء تنتشر والسعاة ينقلونها إلى القاهرة فاستمع سكانها إلى
هذه الأنباء مغمورين بالفرحة حتى كادوا لا يصدقون أنباء
رشيد لفرط ما بلغت من نتيجة حاسمة ، يقول الجبرتي : د فضبوا

مدافع وعملوا شنكا ، وخلق كتحدا بك على السعاة الواصلين
وأسرع المبشرون من أتباع العثمانيين وبعض القواصة الأتراك
بالسعى إلى بيوت الأعيان وبيشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش
والخلع ، وتقبلت القاهرة الأنبياء بالبشر والحماس فقد أنزل
النصر هيبة الحملة في نفوسهم تلك الهيبة التي جاءتهم من شهودهم
انتصارات الإنجليز على الجيش الفرنسي في مصر وعلى الأساطيل
الفرنسية في البحار ، فأخذ الشعب يزداد ثقة بنفسه وتحفزاً إلى
الاستمرار في المقاومة ، فنادى الناس بالجهاد وتدفق المتطوعون
إلى القاهرة وغيرها .

وإذا كان من الطبيعي أن تنتهي الأنبياء بالبهجة في نفس محمد على
فقد كان من الطبيعي من ناحية أخرى أن ترتد فتناً قلوب
المماليك حسرة على ما أصاب حلفائهم وهم يتصالحون مع محمد على ،
ويحاولون فرض الشروط عليه .

الأسرى في شوارع القاهرة :

واستمع الناس إلى الأنبياء وكأنهم كانوا على موعد من
شهود موكب الأسرى يشق شوارع القاهرة ليروا بأبصارهم
حقائق هذه الأنبياء وشهودها ، وحماتهم السفن من رشيد إلى
القاهرة فروا في شوارعها ثم استقروا في القلعة وكانت إذ ذاك

بناء احتوته تلال المقطم ميراثا شهد المجد من عهد صلاح الدين ،
يمثل طابع العصور الوسطى ويستقبل عهده الحديث بإشراقة.
شعب يستيقظ من سباته ويفيق من غفلته ويجدد في كيانه وكان.
يوما مشهودا كما يقول الجبرتي .

« فلما كان يوم الاحد ٢٦ محرم سنة ١٢٢٢ (أبريل سنة
١٧٠٧) أشيع وصول رؤوس القتلى ومن معهم من الأسرى
إلى بولاق فهرع الناس إلى الذهاب للفرجة ووصل الكثير منهم
إلى ساحل بولاق وركب أيضاً كبار العسكر ومعهم طوائفهم
لملاقاتهم ، تطلعوا إلى البر وصحبهم جماعة العسكر المعسكرين
معهم وأتوا بهم من خارج مصر ودخلوا من باب النصر وشقوا
بهم وسط المدينة ومنهم فسيال ضابط كبير وآخر كبير السن وهما
راكبان على حمارين ، والبقية مشاة في وسط العسكر ورؤوس
القتلى معهم على نوابيت وعدتها أربعة عشر رأساً والأحياء
خمسة وعشرون ولا يزالون سائرين بهم إلى بركة الأزبكية وضربوا
عند وصولهم شنكا ومدافع وطلعوا بالأحياء مع فسيالهم إلى
القلعة . وفي يوم الاثنين وصل أيضاً حملة من الرؤوس والأسرى إلى
بولاق فطلعوا بهم على الرسم المذكور وعدتهم مائة وواحد وعشرون
رأساً وثلاثة عشر أسيراً ومنهم جرحى » .

عودة العدوان البريطاني على رشيد وهزيمة انجلترا الساحقة

معركة رشيد الأولى بهزيمة الجيش البريطاني ، هزيمة ساحقة وانتصار المقاومة الشعبية انتصاراً مؤيداً ، وقد شعر الطرفان عقب المعركة بمشاعر متضاربة حفزتهما نحو لقاء آخر والتحام أشد انتهى بنتائج حاسمة ، رفعت من شأن مصر المكافأة وقضت على ما عقد من رجاء وراء الحملة البريطانية .

شعر الإنجليز بالكبرياء الجريح وشعر قنصلهم ، مست النذير الهادف إلى القضاء على خطته التي سير من أجلها الحملة الأولى على رشيد فثبتت النية على الانتقام ومعاودة العدوان على رشيد . وشعر المصريون بالثقة تتدفق في نفوسهم وبالأمل يشد عزائمهم للاستعداد في كل مكان لمقابلة العدوان والإجهاز عليه بعد أن تواردت النيات السيئة للحملة وضوحاً .

موقف الشعب :

أخذ الشعب يستعد في حماس رتيب ، وكان استعداده ذلك من أجل المعركة الفاصلة ، وكانت القاهرة الرأس المدبر للمقاومة

الشعبية والعين الساهرة على موازرتها بالاستعداد العسكري عندما
تجد الساعة . وقد كان الاستجابة منها منذ أن وردت أنباء المعركة
الأولى أن استنفر الشيوخ ، وفي مقدمتهم السيد عمر مكرم ،
أهلها إلى التطوع للقتال ، وخطب خطباء المساجد في حث الناس
على الجهاد فأقبلوا على الدعوة متطوعين تحت لواء المقاومة
الشعبية وكان تطوع الشعب تلقائياً يعبر عن استعداد روجي
وشعور بالتضامن وحرص على صيانة مقومات الحياة ، وكان
المتطوعون يذهبون كل يوم إلى أطراف المدينة ، يعملون في حفر
الخنادق وإقامة الاستحكامات شمالى القاهرة لصد عدوان
الإنجليز إذا ما حدث وجاء هؤلاء عن طريق شبرا ، وقد بادروا
إلى العمل في ذلك بزعامة عمر مكرم ، وكان الفقراء يعملون
متطوعين نصف النهار ، ثم يعودون إلى أعمالهم عند الظهر .
وكان عمر مكرم يذهب إلى حيث يشتغل العمال في إقامة
الاستحكامات فيثير حماسة الجماهير ، وكان ينبه على الناس ،
ويحضهم على حل للسلاح والتأهب للجهاد ضد الإنجليز الغزاة ،
ثم دعا الأزهريين إلى المشاركة في القتال ، ولم ينظر إليهم كرجال
علم ودين لحسب ، بل رجال جهاد وقتال ، وما لبث هؤلاء أن
أذعنوا للدعوة ولبوا نداء الجهاد والاستعداد للقتال ، تاركين

ساحات دروسهم ، وكان الشعب في زعامته دائب الحركة والتفكير ، في تدبر الموقف ودراسته إبان غياب محمد علي في الصعيد ، وكانت القاهرة تعقد الاجتماعات وترسم الخطط بروح تنم عن أصول قومية تستنبت نبأنا حسناً لتشرق فيما بعد وتستضيء بها مصر الحديثة .

يقول الجبرقي يصف اجتماع زعماء الشعب ورجال الحكومة من أجل التشاور ودراسة الموقف ورسم ما يجب تنفيذه :

« وفي يوم الثلاثاء (٢٨ محرم) حصلت جمعية بيت القاضي وحضر حسن باشا وعمر بك والدفتردار وكتبخدا بك والسيد عمر النقيب والشيخ الشرفاوى والشيخ الأمير ، وباقي المشايخ فتكلموا في شأن حادثة الإنجليز والاستعداد لحربهم وقتلهم وطردهم فإنهم أعداء الدين والملة ، ويجب أن يكون الناس والعسكر على حال الألفة والشعبية والاتحاد ، وأن تمتنع العساكر من التعرض للناس بالإيذاء ، كما هو شأنهم ، وأن يساعد بعضهم بعضاً على دفع العدو . »

ثم أخذ هؤلاء في التشاور في تحصين المدينة وحفر الخنادق وقد نمت أحاديثهم عن خبرة جديدة اكتسبوها من نضالهم السابق ضد الفرنسيين إبان غزوهم مصر ، فمن قائل بأن الإنجليز

لا يأتون إلا من البر الغربي والنيل حاجز بين الفريقين ، وأن الفرنسيين كانوا أعلم بأمر الحرب ، وأنهم لم يحفروا إلا الخندق المتصل بباب الحديد والمنيل ، ومن قائل بضرورة الاعتناء بإصلاحه وغير ذلك من الآراء ، حتى اتفقوا على رأى الأخير ،

ولقد شاء قنصل فرنسا الذى فر من الإسكندرية وجاء القاهرة عن طريق رشيد أن يسهم فى هذه الترتيبات الفنية فى رسم خطط الدفاع عن القاهرة ، يقول الجبرقى :

« فى يوم الاربعاء (٢٩ محرم) ركب السيد عمر النقيب والقاضى والأعيان المتقدم ذكرهم ونزلوا إلى ناحية بولاق ؛ لترتيب أمر الخندق المذكور وفى صحبتهم قنصل فرنسا ودية وهو الذى أشار عليهم بذلك ، وفى صحبتهم أيضا الجمع الكثير من الناس والأتباع والكل بالأسلحة .

واشتركت طبقات الشعب فى حفر هذا الخندق وإقامة الاستحكامات يقول الجبرقى :

« وشرعوا فى حفر الخندق المذكور ووزعوا حفره على مياسير الناس وأقبل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف الروناجى ، وجعلوا على البعض أجرة مائة رجل من الفعلة ، وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين ، وكذلك أهل بولاق ونصارى

ديوان المكس والنصارى والأروام والشوام والأقباط ، واشتروا المقاطف والغفقان والفتوس ، والحزم وآلات الحفر ، وشرعوا فى بناء حائط ، مستدير بأسفل تل قلعة السبتية .

ولم يكتف أهل القاهرة بالتطوع للدفاع عنها ، بل هبوا لنجدة إخوانهم أهل رشيد ، عندما حاول الإنجليز معاودة الحملة عليهم ، وكانت زعامتها تنظم هذا العون فى القاهرة وخارج القاهرة وإبان ذلك الغزو الثانى لرشيد .

موقف الإنجليز والهجوم الثانى على رشيد :

بينما كان الاستعداد لمواجهة الإنجليز بين الشعب على أشده ، والفرحة تملأ قلوب الجميع لانتصارهم على الإنجليز ، كان هؤلاء فى الإسكندرية يشغلهم أمر الهزيمة وقد دفعتهم الرغبة يستثيرها قنصل بريطانيا — للانتقام إلى معاودة الغزو لرشيد ، بعد أن ذل كبرياءهم العسكرى . ولكنهم وجدوا هذه المرة قوة أكبر ، من شعب متساند مع جيشه وحكومته ومشاعر مهيأة للنضال حتى النصر .

كان بجانب العسكرين الإنجليز قنصل بريطانيا الدائب إذ ذاك على جر بلاده لاحتلال مصر .

لم يحتمل هذا القنصل الصبر على الموقف كما انتهى إليه ، فلم يهمد

— لاسيا بعد أن شاهد النتيجة السيئة — عن التحرض على غزو رشيد . وعندئذ تابع تحريضه لمعاودة الغزو مرة ثانية ، فذهب في جماعة من أعيان الإسكندرية ليقابل فريزر ويطلب إليه تدارك رشيد لأن الطاعون قد اجتاحتها ، فتقرر إيفاد حملة عهد بقيادتها للجنرال ستيوارت .

وكانت رشيد قد أنهشها النصر الأول وفتح أعينها على خبرات جديدة في القتال ، وقد أصبحت بعد نصرها تستند إلى عمق كبير يسند ظهرها من مشاعر المصريين جميعاً ، ولم يكن مقدراً إلا أن تصمد أمام الغزاة بعد أن غدت مروة من المصريين في بسائها ، وبعد أن ارتبطت بثقة كبرى بينها وبين مائر الشعب .

التقاء الطرفين :

وتحرك الجيش الإنجليزي من الإسكندرية لمعاودة الهجوم على رشيد مرة ثانية واحتلال هذه البلدة وكان عدد قواته أربعة آلاف مقاتل في الثالث من أبريل سنة ١٨٠٧ والتقى الطرفان في ساحة رشيد وأحكم القدر للطرفين خيوط مصيره ، وأرهف التاريخ أذنه ليتسمع إلى الأمر الفصل الذي شامت هذه البلدة أن تلقيه في سمعه تحديداً لمصير الحملة البريطانية ، وما جاءت

من أجله ، ليسجل بدوره على يدى رشيد نصراً جديداً يرسى
أصول فجر جديد لمصر الحديثة .

أصبح جيش ستيوارت على مقربة من رشيد ، إذ ذاك أنفذ
كتيبة منه احتلت الحماة التى تقع جنوب رشيد بين النيل وبين
أدكو ، وقد شاء القائد بذلك ضرب الحصار حول رشيد والحيولة
دون وصول المدد إليها من الجنوب ، وصيانة مؤخرة الجيش
الإنجليزى ليسهل احتلال رشيد .

واحتل الإنجليز آكام أبى مندور ، وركبوا عليها المدافع
ليقصفوا منها رشيد بالقنابل ، ثم عسكر معظم الجيش الإنجليزى
غربى رشيد وجنوبها ، وأخذ يحاصرها فى ٧ أبريل ، ويضربها
بالمدافع .

كان الغزاة يظنون أن قصفها بالمدافع يلقى الرعب فى نفوس
الحامية والآهالى ، ومن ثم يسلبون مضطرين ، ولكن عبثاً راحت
ظنونهم أدراج الرياح . فرغم إنذاره لهم أكثر من مرة بأن
يدعنوا ويسلبوا مدينتهم صاغرين فقد رفضوا ذلك عن إباء وشم ،
وقد ازدادوا قوة معنوية وتماسكاً ورغم تهدم الكثير من البيوت
وقتل العدد الوافر من الآهالى . وصمدت رشيد أمام العدوان
الغادر وتحمل الآهالى الحصار ، وما نجم عنه من خسائر فى صبر

عجيب في انتظار عون القاهرة ومساندة إخوانهم من المصريين وهم يفتدونهم بأرواحهم في المقدمة ؛ بما أثار دهشة القائد الإنجليزي ، فقد كتب الجنرال ستيورات إلى فريزر في الإسكندرية يقول نقلا عن وثائق الحملة :

« . . . تبين لنا أن الأعداء لا يكثرثون بالمصايب التي تنزل بهم . إن قواتهم لا تزيد على ما بلغنا عن ٣٠٠ من الفرسان ، و ٨٠٠ من الأرنؤود وألف من الأهالي المسلحين ، ولكنه نظراً لسعة خطوط دفاعهم . . . وطبيعة مواقعهم أرى من الحكمة أن أتعجل باقتحام المدينة وإن نجاحنا معلق على نجدة المماليك ، فإذا جاءوا إلينا أمكننا أن نرسل إلى البر الشرق من النيل قوة تشترك معنا في القتال ، أما الآن . . . فيستحيل علينا ذلك ، لأن العدو متفوق علينا في قوة الفرسان . . . وليس لدينا مثل هذه القوة التي لها عمل كبير في الجهات المنبسطة كالدلتا ، وفي انتظار تلك النجدة يتبين لنا أهمية موقعنا في الحماة ، فإننا نتوقع أن يهاجمنا الأعداء فيها ، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها في يدنا . »

رئيسر طلب النجدة :

وبين صمود رشيد في الدفاع عن دمارها واقتداء المصريين ،

بنضالها التاريخى ضد الغزاة ، أرسلت تطلب النجدة من القاهرة بعد أن اضطرت فشعرت بوطأة الموقف .

أرسل السيد نقيب أشراف رشيد الرسائل للسيد عمر مكرم يستنجد به ويطلب إمداد المدينة بالرجال ، فقرأ السيد عمر مكرم الرسالة الأولى على الناس ، وحضهم على التطوع لنجدة رشيد فاستجابوا إليه وتطوعوا وحملوا السلاح وأزمعوا على السفر لنجدة إخوانهم . وبالرغم من أن (كتخدأ بك) لم يأذن لهم بالسفر حتى يعود محمد على من الصعيد ، فإن كثيراً منهم لم يعبأ بهذا المنع وارتحلوا لنجدة أهل رشيد والوقوف بجانبهم فى صد الجيش الإنجليزى .

وتطوع كثير من أهالى البحيرة والبلاد المجاورة لرشيد ، وأقبلوا عليها يتدفقون وقد مثل ذلك لوناً جديداً من الشعور بالجماعة ، غير أن هذا لم يكن ليسعف الموقف ، إذ كان لا بد من مدد من قوات الجيش المصرى ، ليقف بجانبهم فى المعركة .

عودة محمد على من الصعيد :

وعاد محمد على من الصعيد ، فى غضون هذه الأزمة الدقيقة ، ورشيد تتابع طلب النجدة ، فبلغ القاهرة ليلة ١٢ أبريل

سنة ١٨٠٧ وخرج عمر مكرم والمشايخ والمحرقى لملاقاته ،
وركب الجميع وذهبوا للسلام عليه ، ودار بينهم الحديث في أمر
الإنجليز ، فأظهر اهتمامه الكبير ، ولكنه سخط على أهل
الإسكندرية سيما أمين آغا إذ مكثوا الإنجليز من الثغر ، ولم يقبل
لهم عذراً ، ولما قالوا له : « إننا نخرج جميعاً للجهاد مع الرعية
والعسكر ، كان جواب محمد علي : « أن ليس على رعية البلاد
خروج ، وإنما عليهم فقط المساعدة بالمال ، ثم انفض المجلس .
وسار بعد ذلك تدبير الموقف في نشاط جدى » .

محمد علي يستعمر :

اطمأن محمد علي كثيراً ، وسر لهزيمة الإنجليز في رشيد ، ولقي
الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع ، ولكن لم تملأ قلبه الطمأنينة
تماماً فقد رأى أن الإنجليز قد يستأنفون القتال ، فبادر إلى
تجريد جيش لمحاربتهم ، وجد في استكمال الاستحكامات التي بدأها
الشعب من قبل ، وواصل العمل في حفر الخنادق من باب الحديد
وبولاق ، لإقامة خط الدفاع عن القاهرة ، من الشمال ، وشق
أخاديد أمام الفنادق تتصل بالنيل لتملأ بالمياه وتعرقل تقدم الجيش
الإنجليزى . ثم أغرق عشرة من المراكب بين جزيرة بولاق

والشاطئ ، لمنع مرور السفن الإنجليزية في النقل إذا ما جاءت من رشيد ، ثم نصب المدافع في شبرا وامبابه وجزيرة بولاق ، وقد اشترك معه العلماء والشعب في العمل بحماسة ، وأخذ يدبر المال اللازم لنفقات الجيش ، يعاونه في ذلك علماء البلد والسيد عمر مكرم ، فجمعوا تسعمائة كيس من سكان العاصمة من أجل نفقات الزحف ، حتى تم إعداد الحملة ، فكانت مؤلفة من أربعة آلاف مقاتل من المشاة ، وخسمائة وألف من الفرسان ، ثم أمرها بالسير قاصدة رشيد بقيادة طبوز اغلى (كتنخدا بك) نائب محمد على .

كان أهالى رشيد ينتظرون في لهفة أن تنجدهم القاهرة بالمدد والمساعدة ، وهم في صمودهم أمام الإنجليز ، وكان الإنجليز من ناحيتهم ينتظرون أن ينجدهم المماليك وهم يهجمون على الأهالى بغير جدوى ؛ ليتمكنوا من الاستيلاء على رشيد ، ولكن هؤلاء أخذوا يسوفون ويماطلون في الوفاء بعهدهم ويرقبون تطور الحوادث في حرص ، وقد وقفوا جانبا عن حلفائهم لما رأوا من حرج مراكمهم ، وقد بدأ الموقف يتحول إلى جانب رشيد بفضل استجابة القاهرة لها بالعون القوى . استمر الضرب والحصار نحو اثني عشر يوما ، كان الأهالى يناوشون

مواقع الإنجليز في الحماة ، فأنفذ إليها الجنرال ستيوارت مددا من الجنود ، وركب المصريون مدفعين على الشاطئ الشرقي ، وأخذوا يلقون القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزي ، بالبر الغربي ، عندئذ اجتاز الميجر ماكدونالد النيل عند مسجد أبي مندور في ١٦ أبريل ومعه قوة من الجنود عددها ٢٥٠ جنديا وأستولى على موقع المصريين وعلى المدفعين ، ولكن سرعان ما ارتدت القوة إلى أعقابها عندما تلقى المصريون مددا واستمر الضرب والحصار إلى أن جاء المدد ، الذي أرسله محمد علي ، عندئذ أخذ الموقف الحربي يتغير من أساسه . ولقد كانت هذه الإمدادات المصرية مؤلفة من فرقتين يقود إحداها طبوز اغلى وقد اتخذ خط سيره الساحل الشرقي للنيل ، أما الثانية فكانت تحت قيادة حسن باشا وكان يسلك طريقه إلى رشيد بجنداء الشاطئ الغربي للنيل وقد ظلت كلتاها تسيران بجنداء واحد على ضفتي النيل حتى بلغتا قبالة النقطة التي كان يعسكر فيها الجيش الإنجليزي ، واتخذها نقطة أمامية وهي قرية الحماة ، فعسكرت فرقة حسن باشا تجاهها ، كما اتخذت الفرقة الأولى قبالتها قرية برنبال معسكرا لها ، وكانت كل قرية على مرأى البصر من الثانية .

براية المعركة :

دار محور القتال حول موقع قرية أبي حماد ، لان موقعها الاستراتيجي كان على جانب كبير من الاهمية ، فمن يملكها كان يستطيع التحكم في منطقة رشيد كلها ، وقد تخير الإنجليز احتلالها والدفاع عنها بشدة لحماية ظهر القوات المحاصرة لرشيد من احتمال هجوم القوات المصرية من الجنوب .

وكانت أهميتها الحربية ترجع إلى وقوعها في برزخ بين النيل وبحيرة أدكو ، وكان في شمالها ترعة ، كانت في ذلك الحين جافة تصل بين النيل إلى قرب البحيرة ، وكان التحكم فيها من شأنه أن يقطع على جيش مصر ولوج هذا الباب الوحيد السهل ، فيحول تمكنه من القضاء على الجيش الإنجليزي المحاصر لرشيد ونجدة أهلها ، غير أن قوات مصر إذ ذاك كانت من القوة لدرجة أن كان في مقدورها فتح ثغرة في هذا البرزخ بين القوات البريطانية والنفوذ منها إلى رشيد ، بل والالتفاف حول القوات الإنجليزية نفسها ثم تشتيتها .

وما أن رابطت قوات مصر في مواقعها ، حتى تقدمت منها طليعة من الفرسان البواسل في صبيحة العشرين من شهر أبريل

نحو مواقع الجيش الإنجليزي في الحماة ، وهناك التقت بكتيبة منهم بين المزارع ، فلم يسع هؤلاء إلا الارتداد إلى الورا قبلما لم يحكموا انسحابهم ، انقض عليهم الفرسان المصريون وأحاطوا بهم فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين ، وقضوا عليها كقوة محاربة ، وعلم ستيوارت بهذا التلاحم الذي خسر فيه جنوده وأنذر بتفكك أوصال جيشه والقضاء على قوة الحماة كلها ، أرسل القائد ما كلود ومعه قوة من الجنود والمدافع وعهد إليه بقيادة القوة المربطة ، ثم رتب الكلونيل مواقع جنوده وكان عددهم ثمانمائة ، ترتكز ميسرتهم إلى النيل بقيادة المايجور وجلساند ، أما ميمنتته فكانت بقيادة الكابتن تارلتون ، وكانت قرب بحيرة أدكو ، أما قلب هذه القوة ، فكان يرتكز إلى قرية الحماة نفسها بقيادة المايجور مور . ثم انقضى يوم ٢٠ أبريل دون أن تتعرض مواقع الإنجليز للخطر ، وسرى الاطمئنان إلى قلب ما كلود على سلامة مركزه وتحصيناته .

وقام الجنرال ستيوارت في ٢١ أبريل يطمئن إلى سلامة الخطة ومعدات قواته ، فأخذ يفتش خط الدفاع في هذه القرية ، فلاحظ بعض العيوب فيها ، إذ وجد أن القوة في خط الدفاع ، لا تحتل في بعض نقاطها أى ضغط من قسوات جيش مصر

إذا ما حدث وتكاثر عددها ؛ إذ كان من السهل أن تنفذ القوات المصرية عند تسكاثرها من إحدى ثغرات هذا الخط إلى قوات رشيد ، وتمزق شمل هذا الخط الدفاعي ؛ لذلك عهد إلى الكولونيل ما كلود أن يبذل قصارى جهده للدفاع عن موقعه ، ثم أمره بالارتداد إلى شاطئ البحيرة في حالة تسكاثر قوات الفرسان المصريين . فإذا لم يستطع ذلك ، فعليه أن يتراجع مرتدا إلى الجيش الإنجليزي المحاضر لرشيد إذ ذاك .

ونظرا لأن ستيوارت كان قد أدرك تسكاثر قوات مصر بشكل أصبحت به تفوق عدد الجيش الإنجليزي ، عدة وعتادا فقد ارتأى أن ينتظر حتى اليوم التالي . ثم اعتزم أنه إذا لم تصله النجدة التي كان يترقبها الإنجليز من المماليك برا بعرودهم ، واتفاقهم السابق أن ينسحب من موقع الحناد ، ثم يرفع الحصار عن رشيد ، ليتراجع منها إلى مركز القيادة العامة بالإسكندرية .

النصر في المعركة الفاصلة :

وجاء اليوم التالي (٢١ أبريل) وكان يوما أغر على قوات مصر وعصيا على القوات الإنجليزية ، فلم تأت إمدادات المماليك المتوقعة ، وتطلع الكولونيل ما كلود إلى الأفق ، وامتد بصره ،

فرأى في الصباح معالم الهزيمة لجيشه ، رأى القوات المصرية وقد تسكّثر عددها وامتلا السهل برجالها ، وقد تهيأت إذ ذاك للانقضاض على جيشه لتلقى عليه درسا قاسيا ، وكأنما كان القدر قد أعد الهزيمة ليفرضها على بريطانيا المعتدية ، وكانت خيوطها تنحدر إلى هذا اليوم العصيب ، الذى مثل اليوم الفصل للحملة الإنجليزية كلها .

أسرع القائد يتدبر الموقف ، فقد حدث إذ ذاك أن انتقل طوبوزاغلى قائد جيش مصر من الشاطئ الشرقى إلى الشاطئ الغربى للنيل منضما إلى زميله ، والتجمع للهجوم على الحماة .

كان طوبوزاغلى منذ أن رابط فى برنبال يتردد فى اتخاذ أى طريق يسلكه ، هل يذهب رأساً لنجدة رشيد ، ليرفع الحصار عنها ، أم يهاجم أولا مواقع الجيش الإنجليزى فى الحماة ، فلما بلغه النصر الذى ناله الفرسان فى الاصطدام الاول ، تشجع واعتزم اتباع الخطة الأخيرة فعبر النيل ليلا بجنوده ، وانضم إلى فرقة حسن باشا ، وتهيأ لمهاجمة الحماة فى صبيحه ٢١ أبريل .

فلما شاهدهم القائد « ماكلود » فى ذلك الصباح فى تسكّثر عددهم أسرع إلى الجنرال ستيوارت ينشئه بالخبر ، ويطلب إليه أن يقره على الانسحاب إلى رشيد ، فلما علم ستيوارت ، لم يلبدا

حتى أقره على خطته ، ثم أمدّه بفصيلة من الجنود غير أن الرسول لم يصل إلى الحماة ، كذلك لم يأت هذا المدد ، لأن فرسان الجيش المصرى كانوا قد انسأوا فى السهل وقطعوا المواصلات بين الحماة ورشيد ، وبذلك أصبحت القوة الإنجليزية فى حالة انعزال تام .

واعتزم « ماكلود » الانسحاب من خط دفاعه يأساً وقنوطاً ، مؤثراً العاقبة على النضال الحربى ، ولكنه لم يحكم خطة انسحابه ، إذ تفرقت قواته وانتشرت ، إذ ذاك باغتها فرسان الجيش المصرى وانقضت عليها واحدة إثر أخرى وهزتها شرمقى فى الوقت الذى احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماة .

وحى وطيس المعركة ، وواجهت القوات المصرية خصمها بأشد هجوم ، تضرب فى الشمال واليمين ، وتنفج بالأمل الباسم المتفتح عن فجر جديد ، كتملة متراصة موحدة الهدف فى مواجهة جيش الإمبراطورية ، الذى هزمت به الفرنسيين والآتراك من قبل لاتمزقها الخيانة ، ولا تعبث بمقوماتها الدسائس ، ولا تضللها الغايات الضالة ، ومن ورائها شعب متماسك يتحسس نفسه فلا يجد فيها إلا عزماً وقوة وصلابة نحو الجهاد فى سبيل صيانة بلاده ومقومات حياته ودينه وبتطهير بلاده من الغزاة الإنجليز .

بدأت المعركة فى الساعة صباحاً ، واستمرت ثلاث ساعات

سويًا ، كانت القوات المصرية فيها تحكم ضرباتها على العدو وخططها في السير في المعركة .

تعقب الفرسان المصريون القوات الإنجليزية الثلاث ، القلب والميمنة والميسرة ، فأحاطوا بقوة القلب ، وكان معها السكلونيل ماكلود ، فانهالوا عليها بالرصاص من كل صوب حتى قتلت معظم رجالها ، وقتل من بينهم القائد ماكلود نفسه .

وأحاطوا بالميمنة فزقوا جنودها شر عزق ومعهم قائدهم السكابتن تارلتون ، ولم ينبج من القتل سوى خمسين أسرتهم هذه القوات ، أما ميسرة الجيش الإنجليزي فقد حاولت الدفاع عن نفسها والمقاومة ، ولكن راحت مساعيها أدراج الرياح أمام اندفاع قوة الفرسان ، وخفت حركتهم إذ أحاطوا بها من كل جانب وإذ ذاك لم ير قائدها الميجور وجلساند بدا من التسليم ، فسلم طم عن يد وهو صاغر ، ومعه البقية الباقية من جنوده وبهذا انتهت المعركة بانتصار القوات المصرية انتصاراً ساحقاً وهزيمة الجيش الإنجليزي في الحماة ، ولم ينبج منه أحد ، فن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر ، حتى بلغت خسائر بريطانيا في هذه المعركة الفاصلة ، نحو أربعة مائة وستة عشر قتيلًا ، وأربعة مائة أسير .

فك الحصار عن رسيير:

وعلم الجنرال د ستيوارت ، وقلبه ينفطر بالأسى والأسف ،
بنتيجة المعركة فأدرك عظم النكبة التي حلت بقواته في الحماة ،
وكان إذ ذاك مرابطاً أثناءها بقواته جنوب رشيد ، فأسرع إلى
رفع الحصار عن رشيد ، ثم بادر إلى الانسحاب سراً وفي كتمان ،
حتى لا يباغته جيش مصر وينقض عليه ، فأتلف مدافعه
ومعداته التي لم يستطع حملها متراجعاً إلى الإسكندرية عن طريق
أبو قير يلحقه عار الهزيمة أينما حل حتى غدا جيشه مستضعفاً أمام
سكان المنطقة التي جرت في ساحتها المعركة فبالرغم من كتمانته تدابير
الانسحاب أحس بها هؤلاء ، فتعقبه أهالي رشيد والبلاد المجاورة
في انسحابه حتى وصل إلى بحيرة أدكو ، وهناك جرت مناوشات
على شاطئ البحيرة بين الطرفين ، انتهت بارتداد هؤلاء ، فواصل
الإنجليز انسحابهم حتى بلغوا أبو قير ، ومن هناك ركبوا البحر
إلى الإسكندرية .

أنباء النصر في القاهرة :

وأخذت أنباء النصر تنتقل تباعاً إلى القاهرة ، فيتسابق السعاة

إلى ثقلها ، لينالوا مقابل ذلك العطاء الوفير من محمد علي وشرف
السيق في حلها إلى القاهريين .

يقول الجبرتي : ، في يوم الخميس (١٤ صفر) حضر شخصان
من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنجليز وهزيمتهم وذلك أنه قد
اجتمع الحشم الكبير من أهالي البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن
معهم من المتطوعين والعساكر وأهل دمنهور وصادف وصول
دكتخدا بك ، وإسماعيل كاشف الطوبجي إلى تلك الناحية ، فكان
بين الفريقين مقلة كبيرة وأسروا من الإنجليز طائفة وقتلوا منهم
عدة وقس خلع الباشا محمد علي ، على الساعين جوختين . وفي أثر
ذلك وصل أيضاً شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر
وبالغاً في الإخبار وأن الإنجليز ، انجلوا عن متاريس رشيد ، إلى
مندور والجماد ، ولم يزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى
أن توسطوا البرية ، وغنموا ضماناتهم وأسلحتهم ومدافعهم
ومهراسين عظيمين .

وتمضي قصة النصر فتنتقل إلينا صورة عما يحدث من الإعداد
لتنقل الأسرى إلى القاهرة ، وتزداد الأنباء توارداً فيزداد محمد علي
سروراً ، كما أحيط عمر مكرم علماً بماوقف وكان سروره لذلك

بالغا ، وقد أطلقت المدافع صباح ذلك اليوم (٢٣ أبريل) من القلعة والأزبكية وبولاق والجيزة ، احتقالا بهذه البشرى .
وكان طبيعياً بعد ذلك أن يفد إلى القاهرة جموع الأسرى ذرافات ووحدانا ، كما حدث أثر النصر الأول فى رشيد .

طبيعة أفواج الأسرى :

وتطلع الناس لمقدم الأسرى وأخذت طلائع هؤلاء تترى ، تباعا إلى القاهرة فى اليوم التالى (٢٤ أبريل) فحضر أولا ١٩ إنجليزيا من جنود الحملة ، وعدة من الروس فروا بهم وسط (الشارع الأعظم وأما الروس فروا بها عن طريق باب الشعرية ، وعدتها نيف وثلاثون رأسا موضوعة على نبايت) كرواية الجبرقى ، وقد وضعوها فى وسط بركة الأزبكية مع الروس الأول (صفين على يمين السالك من باب الهواء إلى وسط البركة وشمالها) .

وفى اليوم التالى (٢٥ أبريل) وصل تسعة أشخاص من أسرى الإنجليز ومعهم أحد ضباطهم ، ثم توافد فى اليوم الذى تلاه (نيف وستون ومنهم رأس واحدة مقطوعة ، فروا بهم على طريق باب النصر من وسط المدينة وهرع الناس للفرجة عليهم وبعد

العصر بثلاثة وعشرين وثمانية رموس وبعد العصر بثلاثة وعشرين رأساً وأربعة وأربعين أسيراً من ناحية باب الشعرية وطلعوا بالجميع إلى القلعة) :

الركب الكبير :

ثم جاء ركب الأسرى الأكبر في ٢٩ أبريل الذى ازدحمت شوارع القاهرة الرئيسية من أجل رؤياه ، وكان مظهرا اختلطت به مشاعر النظارة بين معانى الفرحه وعواطف الإشفاق بدافع النزعة الإنسانية .

فبعقب المعركة جمع كتحدا بك جمهور الأسرى، ومعهم جرحاهم ورموس قتلاهم ، وأنزلهم فى مراكز فى النيل لتباغهم تلك للقاهرة ، ليشهدهم سكانها ومن ثم يودعون فى سجون القلعة .

وركب الأسرى وجرحاهم ومعهم رموس قتلاهم تحت حراسة الجنود المصريين ، وسافت الرياح الشمالية السفن إلى القاهرة تشق عباب النهر فى عزة وعلى ظهرها حطام معركة تسجل جزاء الغزاة أمام وحدة الشعب المتأسكة ، وتمعن السفن فى المسير فى صراع مع التيار وتستحث الخطى فى لطفه للقاء القاهرة، فلا تواتبها ريج الشمال بقدر ما ينفس عن حرارة لهفة الجذلان بنصره ، المتشوق للقاء بنى عشيرته يشهدهم مبلغ قوة جيشهم ، ومدى خذلان أعدائهم .

وبينما كان الجنود المصريون مغمورين بفرحة النصر كان الأسرى تتنازعهم الأوهام والهواجس وتتزاحم في عقولهم الأفكار خشية سوء المصير ، فينفسون عنها همسا ، ويأخذ منهم الخوف كل مأخذ من ذلك ، يحاول الفرد ، التسرى عن ذلك بحديث أو بمنظر ، ولكنه لا يلبث أن يرتد في حسرة بين الماضي والحاضر .

وتمخر السفن عباب النهر وتطول الية إلى أمام الجنود ، فيقطعونها بين وحشة الأسر وذلة الهزيمة ، ورهبة المنظر المنبعث من رؤوس زملائهم وتقترب السفن من القاهرة ، فيزداد الجنود المصريون فرحا وغبطة ، بينما تزداد قلوب الأسرى وجلا من أن تصح ، هواجسهم حقيقة واقعة ، فيذوقوا سوء المصير كزملائهم الذين قطعت رؤوسهم .

وتنبليج أضواء الفجر وتكشف خيوط الفجر عن عالم تلال المظلم فتتكشف تحتها قباب القاهرة ومنازلها ، ويستيقظ الأسرى ليشهدوا القاهرة ، وعليها أضواء ، صبح جديد فيرونها لأول مرة ، فتصبح القاهرة لتشهد معالم النصر في موكب الأسرى يطوفون شوارعها . ومن ورائها شعب كان يتبأ إذ ذاك لبناء أصول دولة حديثة .

وتلقى السفن بمراسيها في بولاق ، في ٢٩ أبريل سنة ١٨٠٧ ويخرج أهالى القاهرة ، بين أخبار الامس وموكب اليوم في حلم جديد ، فيتوجه الجميع إلى بولاق ويتوزعون إلى الأزيكية وكأنهم يتلاقون على ميعاد من القدر لمشاهدة الموكب ، ويتكاثر عددهم كلما انتشرت الاخبار عن مجيء الأسرى فيمتلئ ساحل بولاق والطرق المؤدية إلى القلعة بالنظارة .

وتنزل أفواج الأسرى الإنجليز ساحة القاهرة ، أسرى حرب لافاتحين ، كما كانوا يحملون ، وتسير جموعهم وقد نكست رؤوسهم وأبت ألا ترتفع إلا في ذلة ، وحولهم رؤوس قتلاهم مرفوعة على رؤوس الرماح والنبايث وعليهم سمات الإعياء والجوع والتعب لا يكادون يثيرون الشفقة بين أهل القاهرة حتى يرتد منظرهم العدواني فيثير فيهم النقمة جزاء ما فعلوا ، وقد سار في مقدمتهم من قواد الجيش الإنجليزى الماجور مور ، والماجور ويجلسند وكان يوما مشهودا .

وتابع الركب المسير حتى الأزيكية حيث صفت رؤوس الكثيرين من القتلى الإنجليز ، السابقين في صفين على رؤوس النبايث الطويلة وسط الأزيكية ، وكانت نظرة واحدة إلى هؤلاء

من أسرى الركب كافية لأن تضاعف فيهم الرعب وتزيد في نفوس معظمهم الإغياة .

وأخذ حتى الأذربكية يوج بالزحام والحركة ، وكأنما خرج الناس جميعا ليروا موكب الأسرى في يوم النصر ، وكانت أسطح المنازل تزدحم بالنساء وعن يمسدن أبصارهن ليحطن بجالية الموقف

وحدث أن تعمد الماجور ويجلسند وضباطه رفع قامتهم إلى أعلى وهم يسرون بين الجمهور ، ولكنهم ما كادوا يفعلون ذلك فيلقون بأبصارهم نحو الأذربكية حتى اصطدمت تلك بأعين رهوس أقراهم محوله على التبايت وسط الأذربكية فارتفعت نفوسهم وامتألت رعبا وأسى، إذ ذاك ارتدوا إلى نفوسهم منكسى رهوس في ألم وحسرة وقد غدت بعد ذلك خطواتهم أثقل في المسير ، تضاعف متاعبهم وتمكن فيهم الكلال والآسى .

ثم عرج الركب إلى الأذربكية فألقى برهوس قتلى الإنجليز إلى ما كان بها من قبل ، ثم تابع المسير حتى بلغ القلعة فاستودع بجونها جموع الأسرى ، تحت الحراسة المشددة وهناك وبين أحضان المقطم حيث كانت تربض القلعة ، استسلم هؤلاء لنوم عميق ، ولكنه كان نوم الكليل المتعب لا القرير العين ، فكم كان

يؤرقهم شعور الفلق بسوء المصير، ويشير فيهم الوحشة ظلام السجون
بجدرانها السميكة الجائمة على سفح المقطم . يحتويهم الليل فيطول،
وبدهم الصبح ظلام الليل فلا يطلع النهار عن أمل يبعث في قلوبهم
الطمأنينة . وقد ظلوا على ذلك مدة والحوادث تجري حولهم
سراعا لربط مصيرهم بمصير الحملة الإنجليزية كلها .

وكما أعد محمد على للأسرى السجون . أعد للجرحى أمكنتهم
الخاصة، واتجه إليهم يمكنهم من الشفاء بما هيأه لهم من وسائل
العلاج ومن خصصه للإشراف عليهم من أجل ذلك من الأطباء
تحت إشراف قنصل فرنسا . وقد خص كبار الجرحى بمزيد من
العناية إذ أفرد لهم أمكنة تليق بهم . يقول الجبرتي وصفاً للعناية
بالجرحى : « وفرش لهم فرشات ورتب لهم ترانيب وصرف عليهم
نفقات ولوازم واستمر يتعاهدهم في غالب الأيام . . . والجراحجية
يترددون إليهم في كل يوم لمداواتهم كما هي عادة الأفرنج مع مضمض
به إذا وقع في أيديهم جرحى به المحاربين لهم ، » .

رشيد محمد علي

كان هذا يحدث في القاهرة كانت رشيد الباسلة ،
صاحبة الفضل الأتبر في الفصل في مصير الحملة
البريطانية وتخليص محمد علي مما كان مقدراً له ، لونهجت ، من
شروع تستأصل جذور حكومته وتعصف بآماله عصفاً ، كانت
رشيد الجريحة إذ ذاك وهي تدخل التاريخ . تواجه بحنة كبرى ،
كانت نذير سوء للوعى الطالع في مشرق مصر الحديثة ، وذلك في
علاقتها بعد معركة الحماة ، بمحمد علي وحكومته ثم جنوده
البواسل ١١ .

وقفت تدافع وحدها مدة — وهي تبلور في نضالها وعى
شعب جديد حتى أرسيت وحدها ، وهي تتأق عن سائر الشعب
سهما تملوها سهام ، أصول نصر مؤزر ، حتى إذا ما اعتراها
الكلال ، دون أن تفقد روح النضال ، أسعفتها حكومة محمد علي
بالعون الحربى ولما ذاك تجلى في ساحتها الروح القومى المشرق
في إطار الفكرة الإسلامية ، وتحقق بهذا التساند بين الشعب
والحكومة نصر مؤزر كان لمحمد علي من أضغاث الأحلام .

هل أحسبت حكومته بعد هذا بواجب الشناء والتقدير لها
برشيد ١٩٩؟ أو بحقتها عليها في الوجود الكريم ، حقاً يكرم به شعبا
رفعة لدست الحكم وولاه حتى صان حكمه من الدسائس وأطاعه
من يد الغزو الأجنبي .

لم يكن محمد على في بنائه الفكري ينزع بطبيعته نحو شيء
كهذا . . فلم يكن من رأيه الاعتراف بحقوق الشعوب ؛ لأنه كان
يأبى الانحراف عن طبيعته الأوتوقراطية فكان طبيعياً ألا يشجع
هذا الروح المشرق كيلا ينضج فيناصبه العداء .

لذلك أهملت شئون رشيد وهي بعد لم تبرأ من جروحها .
وأخذ محمد على ينظر إليها من خلال نظارته إلى اتجاه لا بد من
القضاء عليه من خلال مبادئه . فاعتدى عليها الجنود الذين
شاركوها في الدفاع عن مصر . بعد معركة الحماة ، فاستباحوا
أهلها ونساءها وأموالها زاعمين كما يقول الجبرقي أنها أصبحت
دار حرب بنزول الإنكليز عنها وتملكها ، وقد كان هؤلاء فئة
لا وطن لها إلا حيثما وجد النفع وتيسر السلب والنهب .

ولما كانت رشيد صورة مصغرة من بناء مصر الفكري إذ ذاك
تكره الطغيان وتجذب بأسلوب عصرها ساعة وراء إقرار العدالة
والآمن ، لم تطلق صبراً على عبث أخلاط جنود محمد على من الترك

والأرناؤود الألبان ، فكانت تكافح الطغيان ولكن بأسلوب جديد ينبعث بوحى الولاء لمحمد على وحكومته وتصفلة الأخوة الإسلامية وترسم خيوط ما تراه من شريعة الدين .

أبدت زعامة البلد الباسل استيائها لإزاء الموقف فأرسل هؤلاء إلى القاهرة بالشكوى والحماية من هذا العبث — يقول الجبرتي : « وكتب عليه المعنون بالمنع وعدم الجراز . . . وعلى أنه لم يرجع طالب الفتوى بل أهملات عند المفتى وتركها المستفتى » . وعادت الجنود إلى العدوان : « حاطوا بالبلدة وضربوا على أهلها الضرائب وطالبوها بالأموال » وأخذوا ما وجدوه فيها من الأرض « العليق » .

عندئذ خرج زعيمها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخدا بك وناقشهما بأسلوب ملؤه التقرير والتشهير فقال : « كفانا ما وقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم . . . وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال . . . ونجاذى منكم بعدها بهذه الأفاعيل . . . فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولا نأخذ معنا شيئاً ونترك لكم البلدة . . . » .

وكان موقف الحكومة فاتراً . ألواناً من الملائقة في الحديث !! ثم « وأظهروا له الاهتمام بالمناداة بالمنع وكتب المذكور أيضاً

مكاتبات بمعنى ذلك وأرسلها إلى الباشا والسيد عمر مسكرم
فكتبوا فرمانا وأرسلوه إليهم بالكف والمنع ، ولكن
لم ينفذ شيء وأهمل شأن البلدة فأثر أهلها الرحيل عنها وهم أصحاب
الدار ، وكانت الحكومة تنظر إلى الجنود كمن أدى واجبا يعون
ما أداه غيرهم في الدفاع عن البلد بشكل يوجب التسامح معهم .
وأهمات رشيد واستبيحت ولكها كمننت في ذاكرة الشعب ،
وغدا التاريخ ينقل عنها كما ينقل عن غيرها مما شابهها في بطولتها
مضروب لأمثلة عن العز و النضال الحر لصد العدوان و كراهية الظلم .
ولقد أفصح موقف محمد علي بهذا عما تنذر به الأيام حيال
هذا الشروق الصاعد في أرض مصر وقد مثل ذلك منه طليعة نزعة
تنحو إلى استخضاله لنقل قياد الأمور إلى يديه منفرداً بملك البلاد.



الموقف بين محمد علي وفرير

كانت القاهرة تموج بنشوة النصر تشاركها مصر كلها ، ورشيد تواجه محنة بعد بطولتها وأسرى الإنجليز بين جدران سجون القلعة ينظرون ما يراه القدر في مصيرهم ، كان التاريخ يسجل في ثبته أقول نجم الحملة الفادرة وفساد خططها الحربية والسياسية على السواء ، وضياع أطماع «مست» في سحب نفوذ بلاده على مصر .

انتقل الفريقان ، بعد معركة الحماد إلى محاولة مجانبة كل أخطار الآخر . ومحاولة الاستعداد إلى الممالك في ذلك ، والممالك بين الطرفين يقفون منها موقف المنتظر لما تسفر به الأحداث فيعلقون ولاءهم لا قواهما قدرة على تحقيق مآربهم في البلاد .

فرير :

أكدت الحادئتان اللتان جاءتا ثمرة أطماع «مست» في دفع بلاده لغزو مصر وانتهيتا بانتصار مصر على انجلترا في رشيد ، وأباتنا لفرير ، كيف دفع دفعاً للخروج عن الغرض الذي

جاءت الحملة من أجله من الاقتصار على احتلال الإسكندرية ولكن بعدن تكبد الثمن في سبيل ذلك غالباً . وقد أصبحت الحملة أنفه من أن تتابع بريطانيا الإنفاق عليها من أجل هدفها المؤقت والذي كان تطور الموقف الدولي كفيلاً بحله ، لاسيما بعد أن فقدت انتصارها في مصر بهزيمتها وانشغلت بما هو أهم في علاقتها إذ ذاك بنابليون وامتنع فريزر بالإسكندرية بعد الهزيمة انتظارا لأوامر بلاده وفي نفسه بقية من أمل لطلب النجدة من المماليك فبعث إليهم رسالة يذكرهم بوعودهم ، ويحرضهم على نجدة ؛ ليتمكن من مواصلة القتال ولكن أنى للمماليك الاستماع إلى ندائه بعد أن فقد معظم جيشه ولحقته به الهزيمة ولم يعد يرجى من ورائه خير ، بعد أن رجحت كفة محمد علي عليه في داخل البلاد ؛ لهذا صموا آذانهم عن الاستماع إلى ندائه .

ووضح للجنرال فيزرز الهدف الذي جاء البسكوات المماليك من أقصى الأرض سعياً وراءه ، لقد قال : إنهم وفدوا إليه ليتمكنهم من امتلاك مدينة الإسكندرية ، ولهذا ولوا وجوههم عنه عندما وجدوه أعجز من أن يحقق لهم ذلك الهدف .

وظل القائد الإنجليزي فريزر ممتنعاً بالإسكندرية والحوادث تجري سراعاً حوله في الداخل والخارج ، فتحدد ما بقى من أيام في عمر الحملة في مصر .

ولكى يأمن على نفسه شر أى هجوم بعد أن أصبح مستضعفاً ،
قطع سد أبو قير لتطغى مياه بحيرة أبو قير على مريوط ، وتحيط
المياه بالإسكندرية من جميع الجهات ، ثم اتجه إلى محمد على فى علو
شأنه عليه ، وأخذ يحدد علاقته به انتظاراً لما ستأتى به الأيام
حول مصير الحملة فيما تقرره بلاده بشأها .

محمد على :

وكان محمد على إذ ذاك قد شعر بكثير من الاطمئنان بزوال
خطر الحملة على البلاد ، ولكنه لم يهمل فى السعى للاستعداد
لواجهة احتمالات الظروف . والعمل على القيام بواجباته الحربية
سحاً للبلاد من قبل الدولة العثمانية . إزاء هذه الحملة وتطهير
البلاد منها .

وعلى غير علم بمجريات الأمور فى المجال الدولى ، التى كانت
تعمل إذ ذاك لتقرير مصير الحملة ، أخذ محمد على يستعد ، فضى
يطالب الممالك بالفاء بالتزامات الصلح الذى عقد بينهما كما
طالبهم الإنجليز .

وجد هؤلاء أنفسهم فى مفترق الطرق تتجاذبهم أيدي
ذات غايات متضاربة ، فلم ينسوا هم بالتالى السهر على مآربهم الخاصة .

تعالىفوا من قبل مع فريزر ولكنهم كانوا منقسمين . يكابدون في كيانهم عوامل اليأس والانحلال ، ومد إليهم محمد على يد المصالحة ، فرغم تجاوبهم الروحي مع الإنجليز رضوا بالواقع بفضل تأثير محمد على وقنصل فرنسا في مصر خشية تقريع إخوانهم المسلمين بالانضمام إلى من اعتبروهم كفاراً ولكنهم لم يقطعوا رجاءهم في الإنجليز بقدر ما كانوا يشكون في نيات محمد على ويقطعون الرجاء فيه . ولكن كان لابد من مسامرة الموقف في الداخل . ثم هزم الإنجليز في رشيد ولكنهم رغم هذا بقوا على رجائهم منهم طالما كانوا في البلاد.ولكن لم يكن معنى هذا الاستجابة لفريزر بالوقوف معه في محنته ضد محمد على، وذلك الذي علت كفته عليهم . ومد محمد على بعد هزيمة إنجلترا في رشيد يده إليهم للوفاء بالتزامات الصلح ، فلم يتحمسوا في ذلك ، فقد دفعتهم عدم الثقة في محمد على إلى الظن في احتمال الخير على يد الإنجليز وهم دولة كبرى . ولكنهم لم يجدوا بأساً من السير وفق التزامات الصلح مع محمد على في بطاء حتى لا يكشفوا عن أهدافهم المضمرة ويتعرضوا للتشكيل إذا جلا الإنجليز عن البلاد وتملك هذا زمام الموقف نفسه فإن لم يأت منه خير بهذا، فلا أقل من أن يتجنبوا به شراً . كانوا غير مخلصين للطرفين ولكنهم كانوا يعقدون الرجاء

على عون الإنجليز أكثر من محمد على . وكانوا ينزعون نحو
معاملة كلا الطرفين بقدر ومقدار ولا يتورعون إذا ما وضع
الموقف في مصر أن يعانون ولاءهم للجانب الأقدر على تحقيق
مآربهم في البلاد وإن كانوا يرجون للإنجليز الغلبة في ذلك على
الأقل قضاء على خصمهم محمد على .

وطالبهم محمد على بالوفاء بعهدهم . فتلكأوا ، في السير شمالا
من الصعيد في جرجا حتى ينجلي الموقف فيكشفوا بهذا عن
أغراضهم الدفينة وكأنهم أحسوا بالتقصير وضرورة مجازاة
الموقف مع محمد على بعد أن علت كفته ، فأخذوا يبدون اعتذارهم
عن التأخير .

حضر في ٢٣ مايو سنة ١٨٠٧ كاشف الكبير الآفاني في سفارة
من شاهين بك الآفاني يبدى اعتذاره عن التأخر حتى ذلك الوقت
ويبدى بقاءهم على المبادئ التي تعاهد عليها المالك ومحمد على
في الصلح .

ثم يحضر إلى القاهرة بعدئذ في ٧ يونيو سليمان أغا من الصعيد
فيحاول إثارة خبر من الطمأنينة حول موقف المالك فينيء
بقرب قدوم الأمراء المصريين وأن شاهين بك وصل إلى زاوية
المصلوب وإبراهيم بك جهة قم العروس وأنهم سيستدعون إليهم

مصطفى أغا الوكيل وعلى كاشف الصابونجي .

ثم تأتي الاخبار بعد ذلك في ١٤ يونية بأن إبراهيم بك وصل إلى بنى سويف وأن شاهين بك ذهب إلى الفيوم لاختلاف وقع بينهما وأن أمين وأحمد بك الألفى ذهبا إلى ناحية الإسكندرية .

السلطنة العثمانية تستحث محمد على على العمل :

وعلمت تركيا بموقف رشيد الباسل من الحملة الإنجليزية فأرسلت د كما يقول الجبرتي ، إلى محمد على توصية بمتابعة الحرب ضد الانجليز فقد جاء في ٢٢ يونيه سلحدار موسى باشا برسوم مكتوب باللغة العربية وآخر مكتوب باللغة التركية مضمونهما د جواب رسالة أرسلت إلى سليمان باشا بعكا يخبر عن أنباء حادث الانجليز وملحقها أنه ورد علينا جواب من سليمان باشا يخبر فيه وصول طائفة الإنجليز إلى نغرا الاسكندرية ودخولهم إليها بمخابرة أهلها ، ثم رحيلهم إلى رشيد وقد حاربهم أهل البلاد والعساكر وقتلوا الكثير منهم وأسروا منهم كذلك — ونؤكد عمل محمد على باشا والعلماء وأكابر مصر بالاستعداد والمحافظة وتحصين الثغور مثل السويس والقصر وعجارية الكفار وإخراجهم وإبعادهم

عن الثغر وقد وجهنا لكل من سليمان باشا وجينج يوسف باشا
بتوجيه ما تريدون من العساكر للمساعدة .

محمد علي يشرع في العمل :

وشرع محمد علي على الفور في الاستعداد للعدو بتعمير القلاع
التي كان الفرنسيون قد أنشأوها خارج بولاق كما قال الجبرتي :
« وعمل مقاييس بناحية ميت عقبة وغيرها ووزع على الجيارة
جيراً كثيراً ووسق عدة مراكب وأرسلها إلى ناحية رشيد لينبوا
هناك سورا على البلد وأبراجا وجمعوا البنائين والفعلة والتجارين
وأنزلهم في المراكب قهراً ، » .

ومضى محمد علي في استعداداته ولكن شامت الظروف أن
تحدد العلاقة بين الطرفين مؤقتاً فيتصالح الطرفان على نهج
يتبعانه .


ولقد عز على القنصل الانجليزي «ميسر» أن يترك القائد وحده
دون أن يتدخل بينه وبين والي مصر ، فزال يستدرجه حتى
لا يوافق على اقتراح محمد علي بإبرام تحالف مع بريطانيا
وبألا يرتبط برباط الألبانيين لأنه رأى في ذلك مضیعة للأهالي
والمالک . وهم في رأيه أصحاب حق ولم استطاع فريزر لضف

شخصيته إلا أن يذعن لهذه النصيحة ، فأعلن مندوب الوالى أنه لو فك إسار الأسرى البريطانيين ووعده بألا يضيق الحصار على المؤن التى ترد من داخل البلاد فإنه يعده بألا يتدخل فى شؤنه مطلقا بل يقدم إليه كل مساعدة ممكنة بأن يدفع للوالى رشوة من المال ، ثم بقيت الأمور تسير على هذا المنوال حتى فصل فى الموقف تفسيرُ علاقة بريطانيا بفرنسا وتركيا ، بتغير الموقف الدولى .

ولذا كان للموقف العام فى الشرق الأوسط أثره الفعال على العلاقات القائمة بين الحكومات الأوروبية فقد أثار ذلك الموقف بتتابع الحوادث منذ هزيمة بريطانيا فى رشيد إلى تحديد موعد الجلاء عن مصر .



تحديد موعد الجلاء والموقف البدوي

هزيمة بريطانيا الحربية في رشيد كان الموقف الدولي  يتجه بحوادثه وآثاره إلى تقرير الغاية التي فرضتها رشيد على بريطانيا ثم تنفيذها من الجلاء الناجز عن البلاد . وكانت بروسيان قد دخلت في حلف التكتل بدل النمسا ، وتولى المستر جورج كالنج وزارة خارجية بريطانيا ، وضاعف نابليون نشاطه في مجال الشرق الأوسط فعقد معاهدة تحالف مع إيران ، وبعث إليها الجنرال جاردن وكثيراً من ضباطه ، ولم تعد الجالية الأوربية تخشى جانب الأتالي ، وكان أهم غرض يرمى إليه نابليون إذ ذاك هو خلق المتاعب في وجوه أعوانه في كل مكان .

وكانت تركيا تدخل في هذا المجال ، وقد حاول بكل ما يستطيع أن يحمي الروح القديمة في قلوب الأتراك . من ذلك ، أنه أصدر أوامره بأن تترجم الفازيتا العسكرية إلى اللغة التركية ، وترسل هناك ، ولم يحل عام ١٨٠٦ حتى تقدم باقتراح عقد محالفة دفاعية هجومية مع تركيا ، واستغل نابليون التنافس القائم بين دول

أوروبا ، ومنذ احتلال مقاطعة الدانوب وقفت النمسا بمعزل
عن حلفائها القدماء ورفضت كل تعاون ، وذهب هناك بوزودى
بورجو للقيام بنشاط — دبلوماسى ، ولكنه أخفق وعاد بخفى حنين
وكتب تقريرا أوضح فيه أن النمسا لن تعود إلى الانضمام إلى الحلف
مالم تسحب روسيا جنودها من مقاطعتى ولاشيا وملدافيا —
ورفض نابليون الصلح مع بروسيا ، مالم تقدم ضمانا بالمحافظة
على أملاك الباب العالى ، وأن تتحالف معه إذا قام بإكراه
روسيا على إخلاء منطقتى دول الدانوب ورفضت النمسا ،
التوسط فى مؤتمر عام اقترحه نابليون عندما علمت أن تركيا
مدعوة إليه ، ووضح لدى كاتنج ولسفير روسيا أن الحرب
مع فرنسا لا تفيد ، كما لا يفيد عقد الصلح معها ، إلا إذا أمكن
لكليهما إبعاد نابليون عن إتمام الصلح مع تركيا ، ومن هنا
كانت بعثة بوزودى بورجو وسير أرثر باجت إلى الباب العالى .
وكان نص المادة الأولى من المشروع الروسى لمعاهدة الصلح
مع تركيا : أن تقبل الأخيرة تجديد كافة الاتفاقات والمعاهدات
القديمة . ونصت المادة الثانية على أنه طالما كانت فرنسا محتلة
دلماشيا فإن الخطر لا يزال قائما ، لذلك اتفق على العمل على طرد
فرنسا ، بالقيام بعمل مشترك .

كما نصت المادة الثالثة بضرورة إيجاد تحالف مع بريطانيا
تشارك فيه روسيا ويكون الغرض منه المحافظة على أملاك
الباب العالي .

أما المادة الرابعة فقد نصت بالترخيص لروسيا باحتلال قلعة
شوكزم وبندر، كضمان لها حتى تنتهى مفاوضاتها مع فرنسا .
وجاءت المادة الخامسة تنص ، على إقامة ولاية باسم
سربيا يحكمها أمير ينتخبه الأهالى مدى الحياة ، على أن يؤيده
السلطان .

أما المادة الأخيرة وهى السادسة فقد نصت على ، ضرورة
إعادة مقاطعتى ولاشيا وملداڤيا إلى حالتهما السياسية السابقة مع
الترخيص لأبسيلاتى بالاحتفاظ بقوة حربية ، قوامها أربعة
إلى خمسة آلاف جندى وذلك لحماية بلاده من أى هجوم يأتىها
من جيرانها ولقد أسرع كاتنج بإرسال باجت إلى الآستانة
ليشارك بمجهوداته مع روسيا فى تسوية الخلافات التى حدثت
من تركيا وروسيا وإقناع الباب العالي بالإبقاء على التزاماته
والقضاء على النفوذ الفرنسى المسيطر على مجالس الديوان .

كانت بريطانيا وهذه الحوادث تجرى إلى مستقرها قد احتلت
الإسكندرية ، وقد شامت وهى تفاوض الباب العالي الاحتفاظ

بمصر ، لتسكون بمثابة توازن تستغله إبان هذه المفاوضات ،
إلا أن الجلاء العاجل عن مصر كان أمرا مفروغا منه .

فلم تكن حكومة بريطانيا قد وصلها بعد نبأ الأحداث التي
وقعت في رشيد ، وانتهت بتمزيق قواتها الحربية ، ولكن الذي
كانت تخشاه هو ما علمته من التقارير الأولى ، لكل من
فريزر وميسث أن احتلال الإسكندرية وهو إجراء وقائي
لا بد منه ، للحيلولة دون الغزو الفرنسي ، قد يصبح أكثر
ثقلا على إمكانيات بريطانيا الحربية لا تستطيع تحمله ،
لذلك أصبح من واجب القائد العام ألا يتوقع بعد حادث
الإسكندرية أية استجابة للإمدادات . وعليه أن يعرف أن نية حكومة
بريطانيا لا ترقى إلى درجة امتلاك مصر من جراء معاهدة صلح .
وبذلك عز على فريزر أن يتبادى في وعوده لمساعدة الممالك على
استعادة القاهرة .

ولما وصلت أخبار ووشوب وستيوارث في رشيد إلى بريطانيا
ورأت مدى الكارثة التي حاقت بجنودها ، أصدرت أوامرها
السريعة إلى فريزر بإخلاء الإسكندرية ، أو العدول عن دخولها
إذا لم يكن قد دخلها فعلا ، وكانت الحكومة البريطانية إذ ذاك
تفضل احتلال صقلية عن الإسكندرية .

وفي نفس الوقت بذل الباب العالي جهده للحيولة دون طغيان نفوذ فرنسا عليه ، فرفض قبول فضيلة فرنسية ، ورد على عرض فرنسا ابرام معاهدة تحالف دفاعي هجومى ، بسؤاله عما إذا كانت فرنسا تنوى سحب قوات احتلال بولندا .

وأرسلت تركيا سفيرها إلى حكومة فرنسا فى شخص « أمين أفندى » ، إلا أن التعليمات صدرت إليه ، وذلك لأن تاليران عندما سأله عن اشتراكه فى مؤتمر ، كان مزعما عقده ، كان رده أنه لا يفهم معنى كلمة مؤتمر . ولما طلب إليه إبداء الرأى فى العرض الفرنسى الخاص بإرسال طابور شرف فرنسى إلى تركيا ، أجاب قائلا بأنه يستحسن ألا يتم ذلك إلا بعد عقد معاهدة صلح . وتقرر أن يتولى المفاوضات معه كل من كولنكور ، وروكس ، بعد أن طال بهم الجلوس فى قاعة المؤتمر ، قال السفير التركى : إن التحالف يمنعه دين الإسلام ، ثم غط فى نوم عميق .

وكانت أهداف السياسة التركية ترقب ما تأتى به الأيام بين قوى الدول الأوروبية العظمى ، التى أسند فيما بينها التوتر ، ثم الميل إلى سياسة التردد والنفاق والمواربه .

ووصل السير آرثر إلى صقلية فى ١٠ يولية سنة ١٨٠٧ والجنرال فريزر ممتنع فى الإسكندرية بعد هزيمته ، فاتفق مع الجنرال مور

لتأجيل سحب قوات فريزر من الإسكندرية لأن السير باجت ،
كان يود أن تكون بين يديه ورقة يلعب بها إبان مفاوضات
مع الباب العالي .

وعاد السير آرثر إلى تركيا في ٢٨ يولية سنة ١٨٠٧
فوجد بوزودى بوجو وقد قابلته السلطات بغير اكتراث
أو ترحيب ، كما أحس أن مقابلته مع الباب العالي محفوفة بالمصاعب
بمكان ، وقد كانت الثورة التى قضت على السلطان قد قتل فيها
الكثير من رجالات البلاد ، أثرها فى تعكير الموقف إذ لم يكن
فى الإمكان القيام بأية اتصالات ذات فائدة رغم أن الثورة
لم تكن تعنى بشئون السياسة الخارجية .

وبدأ الموقف ينجلى وتقترب الامور من نهايتها لتنتهى
مع ما اقتضتها هزيمة انجلترا الحربية فى رشيد من ضرورة
جلاء البريطانيين عن مصر ، فبعد قليل وضحت اجتماعات للصالح
مع روسيا وتركيا وبذلك قضى على بعثة بوزوز وقام باجت
بالعمل منفردا لحساب دولته، وكان الأتراك إذا ذاك يميلون إلى
صداقة بريطانيا لأنهم كانوا يخشون على شعور حلفائهم الجدد ،
وقد أوضحوا لباجت أنه لم يكن ثمة حرب معلنة بين روسيا
وتركيا بصفة رسمية. وعلى ذلك ليس ثمة داع لإبرام معاهدة رسمية

مع بريطانيا خصوصا إذا ما جلست عن الإسكندرية ورفعت
الحصار عن تركيا .

وقد أجاب كاننج -وزير خارجية بريطانيا - على ذلك بأنه
مستعد لسحب جنوده من الإسكندرية على شرط أن يقوم
الباب العالي بتقوية الحامية التركية فيها، وأن يسمح بتعاون قوات
الاسطول البريطانى إذا مادعا الامر للدفاع عنها ، وقد كان
يقامر إذ ذاك بورقة خاسرة فلم يغن ذلك من الأمر شيئا .

وأعلن قبطان باشا أن حكومة تركيا يؤلمها قطع المفاوضات
مع بريطانيا حتى لا يسوء موقفها الحرج مع حليفتها روسيا وفرنسا،
لا سيما وأن بريطانيا لم تكن فى حالة حرب مع تركيا وأنه يعد
بتقديم مقترحات جديدة لبريطانيا .


وبهذا قضى على بعثة باجت بالآستانة ، ومن ثم انتهت مهمته
التي كلف بها واقتربت الحوادث من نهايتها، وانحدرت آثار الموقف
الدولى لتلتقى بآثارها فى المجرى الذى فرضته رشيد على بريطانيا
أن تسير فيه فتنتهى بتعزيزه . فلم تكن بريطانيا إذا ذاك راغبة
فى البقاء فى مصر لتقوية حاميتها بعد أن تغير الموقف الدولى.
وشامت تجميع قواتها لمواجهة نابليون بعد أن أصبح بعد معاهدة
تلمست فى أوج عظمتها ، كما لم تهمل الحوادث الجارية فى مصر ،

انجلترا ، لتساوم وتسوف وتطلب الثمن نظير جلائها عن البلاد
فلم تكن مما يبعث الأمل على ذلك أو يثير الرجاء بتحقيق ما كانت
ترمى إليه من خطط سياسية في البلاد . فقد هزمت حربا
وسياسيا في رشيد بفضل تماسك الشعب وجيش البلاد .

وقد دفعت الحوادث الداخلية وما انتهى إليه الموقف الدولي
فريزر لأن تختصر في ذهنه فكرة الجلاء قبل هذه الحوادث رغم
التعليقات التي أرسلت إليه بتأجيل الجلاء لحين صدور أوامر
أخرى ، فإنه جد في إعداد الخطة لإخلاء الإسكندرية حتى أخلاها
فعلا قبل هذه الحوادث بقليل .



الجلد وعن مصر

محمد على بعد هزيمة انجلترا في رشيد بما تملكه  من الرهبة من احتمال احتلال انجلترا مصر ، وقد بدأت آماله تتفتح والحوادث تجري سراعا من حوله في الخارج والداخل. وكانت مصر إذ ذاك في شخصه تتعلمه لرؤية مصير الحملة بعد هزيمته ولم يكن هو يتوقع أن تجلو بريطانيا بسهولة عن مصر رغم هزيمتها .

وكان فريزر قد تصالح مؤقتا مع محمد على على اتفاق بعد اندحار قوات الأول في رشيد اتفاق قوامه وقوف محمد على منه موقف الحياد والعناية بالأسرى الانجليز ، وبينما كان محمد على يهتم بذلك مقابل ألا يتدخل فريزر في شؤنه الداخلية كانت الأمور قد أسرع إلى نهايتها ، فجاءه البشير إلى القاهرة ، رسول يبعثه الجنرال فريزر إليه ومعه رسالة منه بطلب المفاوضة في عقد صلح بين الطرفين على أساس جلاء القوات البريطانية على الإسكندرية . ولما لم يكن محمد على يتوقع هذه النهاية وبهذه السهولة ، وهو الذى لم تفارق ذهنه محاولات انجلترا البسط نفوذها على مصر ودساتنها

المستمرة للقضاء على حكمه فيها استقبل الرسالة دون أن يتوقع
مضمونها وقد ظن أنها رسالة خاصة بالأسرى الإنجليز الذين أودعهم
في قلعتيه . فلما فُض الرسالة ووجد فريزر يطلب منه المناقضة
في الصلح لم يكذب يصدق مضمونها ولكنه حاول كتمانها ودهشته
منها والبهجة تملأ نفسه في نفس الوقت ، ثم أجاب الرسول بأنه
سيذهب بجيشه إلى دمنهور .

إبراهيم الصلح :

سار محمد علي بجيشه من معسكره في إمبابة متوجها إلى الرحمانية
ومنها إلى دمنهور في ١٢ أغسطس سنة ١٨٠٧ وكان جيشه يتألف
من ثلاثة آلاف من المشاة ، وألف من الفرسان المجهزين بمدفعية
قوية حتى بلغ دمنهور وهناك التقى بالجنرال شربروك الذي فوضه
فريزر لإبراهيم الصلح بين الطرفين المصري والبريطاني . وبعد
مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٠٧
تنص على جلاء الجنود الانجليزية عن الإسكندرية .

وقد قضت في مادتها الأولى بوقف الأعمال العدائية بين
الطرفين فورا وجلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في مدى
عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة على أن تنسحب تلك

من جميع القلاع والمنشآت وغيرها وعلى أن يسلم محمد على للقوات البريطانية رهائن تضمن تنفيذ هذه المعاهدة مكونة من صهره مصطفى بك وعمه إسحاق بك ومهر داره (حامل الختم) سليمان أفندي على أن يظلون على ظهر إحدى السفن الحربية حتى يتم تنفيذ هذه المعاهدة .

كما نصت المادة الثانية على أن يطلق سراح جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم . ويرسل هؤلاء بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يرحلون على السفن الإنجليزية إلى بلادهم .

أما المادة الثالثة فقد جاء فيها النص على إصدار عفو عام على سكان الإسكندرية دون غيرهم من الأهالي عما وقع منهم سابقا ، وعلى أن يؤمنوا على أرواحهم وأملاكهم على اعتبار أنهم قد اضطروا فيما سلكوه بحكم الظروف .

وقضت المادة الرابعة بتأمين حياة أمين بك الأتلي وكان هذا قد بارح الإسكندرية إبان الاحتلال الإنجليزي ، وقد قضت بأنه في حالة عودته إليها ألا أن يناله محمد على بسوء بل يشمله بالأمن له ولشيخته بشرط ألا يتجاوز عددها اثني عشر شخصا .

أما المادة الخامسة فقد نظمت مسائل تسليم الأفراد والأرقام

الملحقين بخدمة الجيش الإنجليزي وبقاء مندوب إنجليزي في الإسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلها ظهروا .

وبعد أن أمضيت هذه المعاهدة في معسكر محمد علي الذي استقر فيه قرب دمنهور . وبادر والى مصر بتنفيذها فأمر على الفور بحمل الأسرى من القاهرة إلى حيث تقرر إرسالهم . ولشد ما كانت بهجتهم عندما أعلن عليهم النبأ في ساحة القلعة . ثم أخذ الجنرال فريزر يعد العدة وتسليم الأسرى ، فسا جاء اليوم التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٠٧ حتى كانت بريطانيا قد جلت عن الإسكندرية وطهر أديمها من الفزاة المعتدين ، وإذ ذاك تقدم طبوزاغلى إلى هذه المدينة وتسلمها نيابة عن محمد علي ، ثم أقبلت السفن البريطانية محفوفة بعار الحزيمة ، ذاهبة بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية .

قال الجبرتي : « في يوم الأربعاء ١٣ رجب وصل المبشرون بنزول الإنجليز من ثغر الإسكندرية إلى المراكب ، ودخل إليها كتنخذاك « طبوزاغلى ، ونزل بدار الشيخ المسيرى » .

تسائج المعركة :

١ — امتداد نفوذ حكومة القاهرة إلى الإسكندرية .

٢ — تأكيد باشوية محمد على .

٣ — مفاوضات محمد على وفريزر كشفت عن مشروعات محمد على .

٤ — إحساس محمد على بخطورة الزعامة الشعبية .

وقد أتاحت هذه الفرصة لمصر ، أن تلبسط نفوذها على الإسكندرية فتضمها جزءا من الوطن المصرى ، بعد أن كانت من قبل تابعة رأسا في إدارتها إلى تركيا ، وقد دخلها محمد على لأول مرة بعد جلاء الإنجليز عنها وكان يوما مشهودا أطلقت فيه مدافع القلاع والأبراج نارية لدخول الوالى وإبتهاجا بيوم الجلاء . وانضمهم الإسكندرية ، إلى الأرض المصرية الحبيبة ، وبعد برهة أقامها الوالى فى الإسكندرية عاد منها إلى القاهرة ، فسار برا إلى رشيد يصحبه حسن باشا، ومن هناك انحدر فى النيل إلى القاهرة ليستقبل فيها عهدا جديدا من تأمين الحكم ، وبناء مصر الحديثة ، فبلغها فى شهر أكتوبر سنة ١٨٠٧ فلما بلغ ساحل بولاق استقبلته مدافع القلعة بالتحية والإجلال .

ولما بلغت أنباء الجلاء عن الإسكندرية إلى الأساتنة إبتهج السلطان محمود إبتهاجا عظيما ، فأرسل رسوله إلى محمد على يعبر له عن إبتهاجه وتقديره له ، ويهدى له سيفاً ثميناً وخلة ، كما أنعم على

نجله إبراهيم بك وطوسن بك وحسين باشا وظاهر باشا
والسيد عمر مكرم وعابدين بك ، وغيرهم بالريش والخلع الثينة .

الحملة أمام التاريخ :

واستراحت مصر من الغزو البريطاني الثاني في طليعة القرن
التاسع عشر وكشفت بهذه الانتصارات عن شروق قوة روحية تحمل
من طياتها معالم بعث جديد ، وخسرت بريطانيا بحملة فريزر
بجانب خسارتها الحربية الكثير من سمعتها الحربية والسياسية ،
ولم يكن هناك أشد أسفا على فشل هذه الحملة ، وهزيمة إنجلترا
في رشيد بأكثر من القنصل الإنجليزي «فيلست» .

كان يستحث بريطانيا على احتلال الإسكندرية ، حتى
يعقد صلحا مع تركيا وينصح بطرد الألبان ، وإعادة الممالك
إلى سلطانهم ، وعقد اتفاقيات دفاعية معهم لحماية مصر ، وكان
الباب العالي يسر ويبتهج لهذا التصرف ، لأنه إذ ذاك كان
قد حرم من الجزية ومن الهدايا ، منذ أن تولى محمد علي البلاد
وكان «ميسر» يعتقد أن مصر ستكون حقا خصباً لمؤامرات
فرنسا في القريب العاجل ، ولكي يؤيد وجهة نظره ، رفع
إلى حكومته ، عرائض شتى وقعها اليونان وأهل مالطه وقبرص

والشام ، والكثير من الممالك الأخرى المقيمة بمصر ، كما أرسل
ملوك أمين بك إلى باجيت ، يقدم عبارات ولائه إلى بريطانيا
وتركيا ، ولكن باجيت كان في مركز لا يحسد عليه ، وقد تعذر
على أمين بك الوصول إلى الآستانة كما أنه لم يتمكن من العودة
إلى مصر لجلاله بريطانيا عنها فاتخذ مالطة مثواه الأخير .

وفضلا عن أخطاء فريزر ومسؤوليات ميست كانت المهمة
كلها خطأ وكان تقرير مور عنها هو الحق بعينه .

فلم تجشم بريطانيا نفسها دراسة الموقف وتخير الوسائل
الفعالة الكفيلة لتحقيق أغراضها ، فلا هي درست الموقف الداخلي
في دقة بشكل تعدله العدة ، فتخطا لما يحتمل أن يجد فيه ظروف
طارئه ، ولا هي قدرت أغراضها بوسائل كانت تجنبها هذه
الجزية ، وكان حظ مصر في مطلع حياتها الحديثة أن واجهت
حملة قامت على افتراضات وآراء غير مدروسة ، وكان حظها
أن وجدت في نفسها القوة لفرض الجزية على بريطانيا حربيا
وسياسيا .

فلو أن هذه الحملة كان قد قرر بشأنها أمر من الأمور للتأثير على
تركيا فإن مصر كانت في مركز بعيد لا تحدث هذا الأثر كما كان
من المستحيل أن تصبح مصر من نصيب بريطانيا في معاهدة صلح

ذلك أنه كان من الممكن أن يتم هذا مثلا دون الحاجة إلى إرسال حملة من صقلية : كان الأمر في شدة الحاجة إليها وقتئذ في مكان آخر أو حتى على الأقل ، كانت هذه الحملة ترسل إلى الدردنيل مع قوة بحرية إذا دعا الحال إلى ذلك .

كما كان الاعتماد على الممالك كمقوة توازر الإنجليز لتنفيذ خططهم ، وتضمن لهم ارتباط مصر ببريطانيا ، برباط التعاون ، لتبقى لهم دوما موالية ، تؤمن طريقهم إلى الهند وتبعد عنها النفوذ الفرنسي — أمر يجانبه الصواب ويدل على قصر نظر ، فقد كانت قوة الممالك إذا ذاك آيلة للتفكك ، ولم يكن في مقدورهم لما أصابهم من الوهن ، بدافع الاطماع الخاصة ، أن يقفوا وراء بريطانيا كتلة من أجل أغراضها ، فقد كانت أطماعهم الذاتية تمزق هذه الوحدة وتغرق اتجاهها نحو الغاية المنشودة ، فلم يكن الممالك قوة إذ ذاك كما كانوا من قبل ، ولم تعد نظرة الشعب إليهم إلا من خلال الكراهية وعدم الثقة تنزل من هيبتهم ما رأوه على أيديهم من مظالم ، يحد من سلطانهم ما أصبح للشعب من زعامة تضمنه تحت لوائها وهي توازر الوالى التركى الجديد محمد على فى عمارتهم ومواجهة الإنجليز على السواء . ولم تعمل بريطانيا حساب الشعب فى تماسكه لاسيما بعد أن عبر

عن ذلك في تحيز حاكمه ، وقد دلت الحوادث قبيل الحملة ، مدى تعلقه بمحمد علي ، وتمسكه بزعامته كذلة متراسة ، حتى جاءت الضربة القاضية للجيش الإنجليزي في رشيد ، ضربة قاضية تمثل حقيقة هذا التماسك وروح المقاومة الشعبية المشرقة حقاً ، تحطمت على أثرها القوة التي اعتمدت بريطانيا عليها في تحقيق مآربها الاستعمارية ، وحالت مصر بهذا دون اتخاذها أداة لتهديد تركيا والمساومة بها في الموقف الدولي من أجل المصالحة على أخذ شيء بترك شيء فيها ، كما أنزلت من سمعة بريطانيا السياسية في الشرق وأوقفتها أمام دافع مرير ، وعجلت بالجلال . ولم يكن للموقف الدولي إذ ذاك من أثر إلا لتحديداً لموعده المقدور . كما ثبتت مصر بانتصاراتها باشوية محمد علي ، وأشعرت محمد علي بخطورة المقاومة الشعبية على عرشه وأطباعه في البلاد .

وبعد .

كان انتصار مصر على إنجلترا في رشيد نصراً للوعي الطالع وإعلام لروح مصر المكافحة ، منذ أن بزغ فجرها في طليعة القرن التاسع عشر ، وهزيمة للخطة البريطانية التي سارت بجرى هذا التطور الروحي في نموه حتى تجلى في صورة أوضح في موقف رشيد

ومن وراثتها شعب متساند مع جيشه في صد العدوان البريطاني
الذي تمثل في حملة فريزر سنة ١٨٠٧ .

ولإذا تبدو هذه الطليعة إشرافاً شعبياً وقوة روحية تمثل بهذا
بذور وعى قويم ينمو في إطار الفكرة الإسلامية في مشرق
مصر الحديثة ، وقد كانت طبيعة تكوينها الفكري المبنية على
بساطة تفكير العصر السياسى في تخير حاكم البلاد في حدود الولاء
للخلافة الإسلامية ، عاملاً فرض عليها فرضاً عاملاً هدمها من
تخير حاكمها من غير ابذنها ؛ ليكون هذا الحاكم في شخص محمد على
ذى النزعة الطبيعية الأتوقراطية .

ولإذا كان ذلك مقدوراً تفرضه طبيعة العصر فقد قدر بالتالى
لهذه الروح الجديدة أن تخدم على يدى محمد على .

ولم تكن إذ ذاك في بنائها العقلى وهى تكافح في تعثر للخروج
إلى العصر الحديث ، بقادرة على التجاوب في تخير حاكمها في نظرة
مثالية ترنو إلى المستقبل إلا في حدود تفكير العصر . فاستمدت
من الماضى مقاييس الحاضر وعليها سمات عصر حديث . ولم تستطع
أن تطبق معنى الحكمة الإسلامية في تخير حاكمها إلا في حدود
الولاء للخلافة الإسلامية ، لذلك لم يكن تخيرها قومياً تماماً ؛ لأنه
قام بدافع الولاء للجماعة المصرية من خلال الولاء للخلافة

الإسلامية - ذلك الاتجاه الروحي الذي مثل محور نشاط الوعي الجديد . ومن ثم شاعت أن تفرض على نفسها وبمشيئتها حاكماً أو أوتقراطياً لا يدين بطبيعة بغير الخداع والدسائس والقوة ؛ ليتمكن لنفسه من الانفراد بالحكم عندما لم يكن هناك بد من ذلك . ولقد ظلت هذه النزعة تراود محمد علي ، وقد بدأت طبيعتها تتجلى من موقفه من رشيد الباسلة في إهمال شأنها وتشريد بنينا وهذه الروح أضعف من أن تقومه إلا في حدود تفكير العصر حتى أصبح محمد علي من كفاحه في سبيل الانفراد بالحكم بعد جلاء الإنجليز عن مصر ، في منتصف الطريق .

تخلص من دسائس الباب العالي ، والحيلة الإنجليزية ، وتصلح مع المماليك مؤقتاً . فلما تم له ذلك ارتد لتحقيق حلمه ويعبر عن طبيعته في الانفراد الكامل بالحكم بالقضاء على المقاومة الشعبية التي أشرقت في نصرها المؤزر على جيش بريطانيا فأصبحت نذير خطر على آماله ومكانته في البلاد .

وجد هذا الباشا ، الطموح المستبد ، أن المقاومة الشعبية بعد الجلاء قد استنفدت أغراضها بعد أن رفعت إلى دست الحكم وحمته من الدسائس في الخارج والداخل ، ووقفت تحميه في حمايتها للبلاد من شرور الحيلة الإنجليزية ، وساندته ضد المماليك ، فارتد

بكافة الوسائل لإخمادها ، ونقل قيادة الامور في مصر إلى يديه وحده .

وبدأ محمد علي يسفر عن طبيعته ، بعد الجلاء في وضوح لبلوغ أهدافه بوسائل الفهر والتهديد والتشريد ، وإشاعة الرعب ، ليحل ذلك محل تلك البسذور الأولى التي رسبت في مجرى الوعي القومي المشرق .

انغمتم فرصة ثورة الجنود الأرناؤود عليه عندما كان إذ ذاك يسكن الأذربكية ، ومطالبتهم له بدفع رواتبهم المتأخرة فانتقل إلى القلعة واتخذها مقراً لحكم البلاد ، بالقوة ، وبدون أن يعبا برأى أحد في ذلك . لقوة مناعة القلعة . وكفاية تحصيناتها . بدلا من وجوده بين الشعب وفي الأذربكية قلب القاهرة .

وبدأ موقف الإرهاب يشهر سيفه في وجه كل معارض ، إذ ذاك ارتد إلى الزعامة الشعبية التي تبلورت فيها أهداف الشعب الجديدة يحدد في تضكيك أوصالها عندما اتجهت تلك تستثيره وهو في علو مكانته فتزیده شعورا بخطورتها على مركزه وغيره محتمة على مكانته من وجودها قوة تنازعه وحدة السلطان والنفوذ في الوقت الذي استنفدت أغراضها وأصبحت بالنسبة إليه غير ذات موضوع .

ولقد بدأ الصراع بين الطرفين عندما أخذ محمد علي يمعن في
البهتة على وحدة النفوذ وتمتد يده إلى الضرائب يقرض منها
ما يشاء بشكل استتار به حفاظ الناس فكلما رفعوا شكواهم إلى
العلماء يستهدفون بهذا التوسط عنهم لدى محمد علي لرفع هذه المظالم .
فقرر العلماء مطالبة محمد علي برفع ما أحدثه من مظالم ومن ثم
أشهر محمد علي سيفه للقضاء على الزعامة الشعبية .

لم يطق محمد علي صبرا أمام تدخل العلماء رغم أن هذا كان
شأنهم دائما الذي عاصره محمد علي من قبل . إلا أنه إن تقبله في
الماضي فلم يعد يطيقه الآن ولا كان ذلك من مصلحته . عندئذ
تقدم في ثبات لأن يقضى عليها دفعة واحدة .

وكانت الزعامة الشعبية أهون من أن تقف صامدة أمام أساليب
محمد علي موحدة ثابتة على قرارها دون أن تنهار بأبسط ضغط يوجهه
إليها محمد علي . فقد كانت تواجه محمد علي وهي تحمل في طياتها
عوامل تخاذلها . تلك التي كانت جذورها تمتد بها إلى الوراء حتى
١٨٠٥ عندما انبثقت إثر خلاف الزعماء وتزاحمهم على نظر أوقاف
الأزهر وقد بلغ التناقش والتحاسد الشعبي ذروته سنة ١٨٠٩
في الوقت الذي صحى فيه عزيمته محمد علي أن يوجه إلى المقاومة الشعبية
في شخص زعمائها الضربة القاضية . عندئذ لم يجد عناء في القضاء عليها .

فما تقدم محمد على بأساليبه ليحل أوصالها حتى تفسكت
ولم يبق صامدا أمامه غير عمر مكرم . مصرا على تنفيذ قرار العلماء .
برفع المظالم عن الشعب .

عندئذ انتهز محمد على الفرصة واستطاع التخلص من هذا الزعيم
الشعبي الذي كان لديه كالرقيب العنيد على أعماله بنفيه لدمياط
ثم التخلص كذلك من الزعامة الشعبية كلها دفعة واحدة
فطواها إلى حين .

ولقد كان موقفه من الممالك منبعا بدافع نفس النزعة التي
سيطرت عليه عندما قضى عليهم في مذبح القلعة وإذ يمثل ذلك
لونا من نشاطه المستهدف الانفراد بالحكم فقد ارتد بالتالى ، فتل
عاملا جديدا استكمل به سعيه فى القضاء على المقاومة الشعبية حتى
حمد بهذا ما بقى لها من أسس روحية كانت تنمو . فقد أحل بها فى
النفوس القلق مكان الثقة ، والرهبنة مكان الشجاعة وانطوائية مكان
النزعة المستقلة المشرقة حتى تبدلت روح الوعى الناشئ على يديه
وانتقل إلى لون من الاستسلام إلى مدى طويل .

ومضى محمد على يبنى مصر الحديثة منفردا بغير سند قومى فاهتم
بالبناء العادى الحديث وتضاءل بجانبه البناء الروحى تماما ، وأقصى
عنه المصريين ولم يستند إليهم إلا قرابة نهاية عهده ولكنه إذ يحمد

مشرق الوعي الجديد فقد اهل مصر ببناء حديث كدولة حديثة
وأعد البيئة لاستنبات هذا الوعي وتطوره من جديد على أصوله
الحديثة الواضحة بإعداده وهو في حالة الكون بأسباب هذا
النمو وذلك بالأخذ بأساليب الحضارة الأوروبية الحديثة في بناء
مصر الحديثة .

ولم تستطع هذه الروح أن تعبر عن ذاتها في عهده ولا في
عهد أسلافه عباس وسعيد إلالماما في نهاية عهد إسماعيل حتى إذا
ما زادت مصر اتصالا بالغرب وامتدت فيها موجات التجدد
المادى والفكرى تجلت سيئات الخديوى ، وزادت مصر نهوضا
بالتعليم في نهاية عهد إسماعيل وعهد توفيق وبدأ تحكم التركي
يخدش مشاعر المصريين والاستعمار الغربى يستغل خيراتهم كان
الانطلاق الاكبر على يد عرابى يمتد بأصوله إلى عصر محمد على ،
ويتشعب بفروعه في عهد أسلافه ، ويعبر عن ذاته في اتجاه
قومى حديث .

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها المطبوع

- | | | |
|---|---|---------------------------|
| ١ — الثقافة العربية اسبق من
ثقافة اليونان والعبرين | { | للاستاذ عباس محمود العقاد |
| ٢ — الاشتراكية والشيوعية | | للاستاذ علي ادم |
| ٣ — الظاهر يبرس في القصص الشعبي | | للدكتور عبد الحميد بولس |
| ٤ — قصة التطور | | للدكتور أنور عبد العظيم |
| ٥ — طب وسعر | | للدكتور بول غليونجي |
| ٦ — فجر القصة | | للاستاذ يحيى حقي |
| ٧ — الشرق الفنان | | للدكتور كي نجيب محمود |
| ٨ — رمضان | | للاستاذ حسن عبد الوهاب |
| ٩ — اعلام الصحابة | | للاستاذ محمد خالد |
| ١٠ — الشرق والإسلام | | للاستاذ عبد الرحمن صدقي |
| ١١ — الميراث | { | للدكتور جمال الدين |
| | | والدكتور محمود خيرى |
| ١٢ — فن الشعر | | للدكتور محمد مندور |

- ١٣ — الاقتصاد السياسى... ... للاستاذ أحمد محمد عبد الحالى
- ١٤ — الصحافة المصرية للدكتور عبد اللطيف حمزة
- ١٥ — التخطيط القومى للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن
- ١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية للدكتور ثروت عكاشة
- ١٧ — اشتراكية بلدنا للأستاذ عبد النعم الصاوى
- ١٨ — طريق الغد للأستاذ حسن عباس زكى
- ١٩ — التشريع الإسلامى واثره
فى الفقه العربى } للدكتور محمد يوسف موسى
- ٢٠ — المبتدئة فى الفن للدكتور مصطفى سويف
- ٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح
- ٢٢ — قصة الذرة للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع
- ٢٣ — صلاح الدين الأيوبى
بين شعراء عصره وكتابه } للدكتور أحمد احمد بدوى
- ٢٤ — الحب الإلهى فى التصوف الإسلامى للدكتور محمد مصطفى حلمى
- ٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب... ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور احمد سويلم العربى
- ٢٧ — القومية العربية للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
- ٢٨ — القانون والحياة للدكتور عبد الفتاح عبد الباقي
- ٢٩ — قضية كينيا للدكتور عبد العزيز كامل
- ٣٠ — الثورة العربية للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣١ — فنون التصوير المعاصرة للأستاذ محمد صدق الجياخنى
- ٣٢ — الرسول فى بيته للأستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٣٣ — اعلام الصحابة (المجاهدون) للأستاذ محمد خال

- ٣٤ — الفنون الشعبية الاستاذ رشدى صالح
- ٣٥ — إختناوت الدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٣٦ — الذرة فى خدمة الزراعة الدكتور محمود يوسف الشواربى
- ٣٧ — الاضياء الكونى الدكتور محمد جمال الدين الهندى
- ٣٨ — طاهور شاهر الحب والسلام... ... الدكتور شكرى محمد هياذ
- ٣٩ — قضية الجلاء عن مصر الدكتور عبد العزيز رفاعى
- ٤٠ — المحضر اوت وقيمتها الغذائية والطبية للدكتور عز الدين فراج
- ٤١ — السدالة الاجتماعية للأستاذ المستشار عبد الرحمن نصير
- ٤٢ — السينما والمجتمع للأستاذ محمد حلى سليمان
- ٤٣ — العرب والحضارة الأوربية للأستاذ محمد مفيد الشوباشى
- ٤٤ — الأسرة فى المجتمع المصرى القديم للدكتور عبد الموزى صالح
- ٤٥ — صراع على أرض الميعاد للأستاذ محمد عطا
- ٤٦ — رواد الوعى الإنسانى... ... الدكتور عثمان امين
- ٤٧ — من الذرة إلى الطاقة الدكتور جمال الدين فوح
- ٤٨ — أمناء على قاع البحر الدكتور انور عبد العظيم
- ٤٩ — الأزياء الشعبية للأستاذ سعد الحادام
- ٥٠ — حركات التسلل ضد القومية العربية للدكتور إبراهيم أحمد المدوى
- ٥١ — الفلك والحياة } للدكتور عبد الحميد مباحة
والدكتور عدلى سلامة
- ٥٢ — نظرات فى ادبنا المعاصر... ... الدكتور زكى المحاسنى
- ٥٣ — النيل الخالد الدكتور محمد محمود الصياد
- ٥٤ — قصة التفسير... ... لفضية الشيخ احمد الشرايى
- ٥٥ — القرآن وعلم النفس للأستاذ عبد الوهاب حموده

- ٥٦ — جامع السلطان حسن ومأخوذه ... الأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٥٧ — الأسرة في المجتمع العربي { بين الشريعة الإسلامية والقانون } للأستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى
- ٥٨ — بلاد النوبة الدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٥٩ — غزو الفضاء الدكتور محمد جمال الدين الفندى
- ٦٠ — الشعر الشعبي العربي الدكتور حسين نصار
- ٦١ — التصوير الإسلامى ومدارسه الدكتور جمال محمد محرز
- ٦٢ — الميكروبات والحياة الدكتور عبد المحسن صالح
- ٦٣ — عالم الأفلاك الدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٦٤ — انتصار مصر في رشيد الدكتور عبيد العزيز رفاعى

مكتبة جامعة القاهرة

١٩٨٠

الثن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

● أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .

● تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة باقلام اساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
● تصدر مرتين كل شهر . في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الاشتراكية العربية

الأستاذ احمد بهاء الدين

١٥ يولي ١٩٦٢

Bibliotheca Alexandrina



0268091